العصافير والثعالب

رحلة صحفي في أقبية السجون المصرية

د. محمد مورو

العصافير والثعالب

رحلة صحفي في أقبية السجون المصرية

د. محمد مورو

فهرس

حكايات العم "إسماعيل" .... - ٧ -

فرافيرو .... - ١٨ -

الترحيل .... - ٢٩ -

أحلى ثمرة طماطم في التاريخ .... - ٣٨ -

حكايات عنبر التأديب.................................. - ٥٦ -

حكاية وراء كل باب.................................... - ٦٩ -

التلفيق والتعذيب أسرار وخفايا أخطر قضية تلفيق .... - ٧٩ -

أسباب التلفيق وظروفه .... - ٨٢ -

الاختيار يقع على مجدي غريب فايد .... - ٨٦ -

رحلة العذاب .... - ٨٨ -

"باب إلى الجحيم"...................................... - ٩٠ -

أربعة أيام بالشورت فقط................................ - ٩١ -

المقابلة الأولى... - ٩٢ -

وانفتح باب الجحيم .... - ٩٩ -

محمد طه البحيري الظلم يتربص بالبسطاء .... - ١٠٢ -

البحيري في معهد أمناء الشرطة........................... - ١٠٦ -

الدخول إلى غرفة التحقيق .... - ١٠٧ -

وأخيرًا تكلموا مع البحيري .... - ١٠٨ -

الماء - الاستحمام...................................... - ١١١ -

الحيلة تنطلي على الحارس .... – ١١٢ –
لحظات عصيبة .... – ١١٤ –
المباحث تفقد أعصابها.. – ١١٧ –
مكرونة باللحم المفروم .... – ١١٨ –
التقرير الطبي .... – ١٢٠ –
الحياة في سجن الاستقبال.. – ١٢١ –
مفاجأة .... – ١٢٦ –
الترحيل إلى سجن أبى زعبل .... – ١٢٨ –
صدور قرار الاتهام في قضية الناجون من النار............ – ١٢٩ –
الأمهات ينتظرن في الشرفات .... – ١٣٠ –
فايد غريب في الحجز .... – ١٣١ –
فاروق عاشور عندما يصل الظلم إلى الذروة.............. – ١٣٢ –
الضعفاء يدفعون الثمن.. – ١٣٦ –
في قبضة الظالمين .... – ١٣٨ –
التهديد بهتك عرض الزوجة رحمة الله في اللحظات القاسية – ١٤٢ –
الموت يعود مع الزوجة .... – ١٤٤ –
محاولة الهرب .... – ١٤٥ –
أغلى كوب شاي في التاريخ .... – ١٤٨ –
أدلة المخبطة في الرد على المثبطة .... – ١٥٩ –
الإفـــــراج .... – ١٦٦ –

هذه قصة حقيقية أراد الله لي أن أعيشها وأن أكون شاهدًا عليها وهي رحلة قاسية وصراع مرير مع سلطة غاشمة تأخذ الناس بالشبهات ولا تريد أن تبذل مجهودًا حقيقيًا في البحث والتحقيق لمعرفة المسئول من غير المسئول، بل ربما يعاني البريء أضعاف ما يعانيه المسئول.

هذه هي رحلة الدموع والعذاب التي كنت أنا وغيري ضحاياها في عهد الوزير زكي بدر، وبالتحديد في عام ١٩٨٧، ولا أدري هل استمر هذا المسلسل بعد زكي بدر أم توقف، وهل كانت هذه سمة نظام بأكمله أم كانت أمور خاصة بزكي بدر فهذا الأمر لا يعنيني هنا في تلك القصة.

لقد قررت أن أكتب هذه الرحلة، وأحكي ما رأيته وما وقع علي أو على غيري وبذلك تكون تجربة ينتفع بها الآخرون، وتكون أيضًا وثيقة للتاريخ، ودفاعًا على قدر الطاقة عن الحرية وحقوق الإنسان في مصر، التي أرى أنه بدون التأكيد على هذه الحرية وبدون التمسك بحقوق الإنسان في مصر، فإن دائرة العنف ستتسع، وإن المستقبل سيكون مظلمًا بالنسبة لنا جميعًا محكومين وحكامًا.

وأود أن أنبه هنا إلى أن كرامة الإنسانية أعز على الله تعالى من الكعبة، وأن الله تعالى الذي كرم الإنسان قد فرض عليه أيضًا أن يعامل أخيه الإنسان بما يليق بهذا التكريم وتلك الكرامة وأن انتهاك حقوق الإنسان – مهما كان الدافع – أمر مرفوض دينيًا ووطنيًا وإنسانيًا، والله من وراء القصد.

حكايات العم "إسماعيل"

دنديط قرية مصرية وديعة ومسالمة، معروفة بين جيرانها بالتسامح والوداعة، بها نسبة عالية من التعليم، لا تعرف الجريمة ولا العنف يندر أن يحدث بها شجار من أي نوع كان، وإذا حدث شجار فإنه غالبًا ينتهي إلى الصلح، ولا تصل الأمور فيها أبدًا إلى حد القتل أو الثأر كما هي العادة في الريف المصري، وهي قرية من قرى مركز ميت غمر، محافظة الدقهلية، وأجهزة البحث الجنائي والشرطة تعرف عنها هذه الحقيقة وتعتبرها من القرى الهادئة وليس بها قطعة سلاح واحدة مرخصة أو بلا ترخيص.

شاء الله لهذه القرية أن تكون مسرحًا لأحداث جسيمة في صيف عام ١٩٨٧.

ذلك أن أحد أبناء تلك القرية هو أمين إسماعيل المصيلحي، كان طالبًا في كلية التجارة جامعة الزقازيق، وكانت تلك الجامعة قد شهدت انتفاضة طلابية واسعة عام ١٩٨٦ تضامنًا مع الجندي سليمان خاطر – ابن الشرقية وابن جامعة الزقازيق حيث كان سليمان خاطر طالبًا منتسبًا

في كلية الحقوق جامعة الزقازيق – وامتدت هذه الانتفاضة إلى معظم قرى ومدن الشرقية وكذا الجامعات المصرية الأخرى، وتصادف أن الطالب أمين إسماعيل المصيلحي شارك في تلك الانتفاضة كغيره من الطلاب بجامعة الزقازيق. وبالمناسبة فإن أبناء ميت غمر عمومًا يلتحقون بجامعة الزقازيق حيث أنها الأقرب لهم رغم أن ميت غمر تابعة لمحافظة الدقهلية، المهم أن الطالب أمين إسماعيل اعتبرته المباحث أحد قيادات هذه الانتفاضة وصدر قرار باعتقاله وجاءت الشرطة لاعتقاله من منزل أسرته بقرية دنديط، إلا أنهم لم يجدوه هناك، وبدأت الضغوط المعروفة على أسرته لتسليمه وتم استدعاء والده الحاج إسماعيل المصيلحي إلى مقر المباحث، وطلبوا منه تسليمه إلا أن الرجل قال لهم إنه لا يعرف مكانه وإنه لن يسلمه إليهم لو عرف مكانه لأنه لم يرتكب من وجهة نظره، جناية تستدعي هذا الأمر، فالشاب تضامن مع سليمان خاطر الجندي المصري الذي دافع عن كرامة مصر وشرفها، والتضامن مع سليمان خاطر ليس جريمة كما أنه أمر ليس قاصرًا على أمين إسماعيل، بل كل طلاب الجامعة قد تضامنوا مع سليمان خاطر.

وكتمتها المباحث في نفسها أو أخذت من وقت لآخر تداهم منزل الأسرة ليلاً بحجة البحث عن أمين إسـماعيل، الأمـر الذي روع الأسرة نساءًا و رجالاً، إلا أن ذلك لم يغيـر فـي الموضوع شيئًا بل ازداد تماسك الأب وإصراره على موقفه.

وبعد فترة من الزمن، حدثت عملية محاولة اغتيال اللواء حسن أبو باشا في شهر مـايو ١٩٨٧، وبـالطبع توسـعت السلطات الممنوحة لضـباط المباحـث، ووجـد هـؤلاء أن الفرصة مواتية لتأديب العم إسماعيل، فجاءت قوة كبيرة مـن الشرطة فداهمت منزل الرجل واعتقلته واعتقلت أيضًا ابنـه أمين، الذي كان قد عاد إلى التواجد في منزله بعد أن انتهت أحداث انتفاضة سليمان خاطر، وبعد أن هدأ الجو حول هـذا الموضوع، ولم يعد هناك داع للاختفاء، وبالطبع لـم يسـلم الأمر من شئ من العبث بأثاث المنزل!

وأحس ضابط المباحث بأنه انتصر على العم إسـماعيل، وقال له متأففًا، إن عليه أن يتأكد أنه لن يخرج من السـجن طالما بقي هذا الضابط حيًا، وإنه سوف يجدد أمـر اعتقالـه تلقائيًا إلى ما شاء الله، وقال له العم إسماعيل في عـزة، إن الأمر بيد الله أولاً وأخيرًا.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل إن أبناء العـــم إســـماعيل وأبناء أخيه عندما ذهبوا في الصباح للسؤال عن أبـــيهم علـــى أساس أنهم تصوروا أن أمر الاعتقال لن يتعدى الابن فقط وأنه ليس من المعقول أن يطال الاعتقال العم إسماعيل فهذا فـــوق التصور خاصة أن العم إســـماعيل يعمـــل ضـــابطًا بـــالقوات المسلحة برتبه رائد وقد ترقى إلى هذه الرتبة بعـــد عشـــرات السنين من الخدمة في القوات المسلحة المصرية التي بدأ العمل بها جنديا متطوعًا وشارك في كل الحروب دفاعًا عن مصـــر، ولكن الأمر كان مختلفًا فكل من ذهب يسأل عن العم إسماعيل قد تم اعتقاله، فقد تم اعتقال ابنه مصطفى وابنه ســـليم والأول يعمل برعاية الشباب بجامعة الأزهر، وأكثر من هذا تم اعتقال ابن شقيق العم إسماعيل وهو السيد أمين المصيلحي.

كان الأمر بالطبع فوق التصور وفق ما هو معتاد فقد غاب هؤلاء في السجون، ولكن الغيظ كان في الصدور، في صدور أسرة العم إسماعيل التي تتكون من زوجه و ٧ أولاد وبنتـــين غاب منهم الأب وثلاثة أولاد هم أمين ومصطفى وسليم وبقي أربعة أولاد ثلاثة منهم صغار، وولد واحد كبير هو خالد الذي كان قد حصل على بكالوريوس زراعة وانخرط في الخدمـــة الوطنية الإجبارية بالقوات المسلحة، وكان حظه حسنًا حيث لم يكن موجودًا بالمنزل وقت اقتحامه.

ولكن المسألة أبدًا لم تنته عند هذا الحد، ذلك أنه حدث في بداية شهر يونيو ١٩٨٧، أن توفي أحـــد كبـــار شخصـــيات القرية، وهو الحاج أحمد عبد الحميد نافع والد الأستاذ محمود نافع وكيل وزارة التربية والتعليم ونقيـــب معلمـــي الدقهليـــة وعضو مجلس الشعب في ذلك الوقت، وكان هذا الرجـــل ذا مكانة كبيرة نظرًا للمراكز القيادية التـــي يشـــغلها أولاده أو أزواج بناته أو أحفاده، مما جعل المآتم المقام له حافلاً بشتى أنواع المعزين وفي أثناء العزاء، وبالتحديد قبيل نهاية العزاء بقليل فوجئ الجميع بهرج ومرج وصياح على غير العادة في سرادقات العزاء ذلك أنه تصادف حضور بعـــض الضـــباط للعزاء وتصادف جلوسهم في السرادق في مواجهـــة خالـــد إسماعيل ابن العم إسماعيل، وبالطبع نظر خالد إليهم بطريقة لفتت أنظارهم فقال له أحدهم لماذا تنظر هكذا ورد خالد قائلاً هل ممنوع النظر مثلاً؟ وكان هذا بداية لمشادة قوية بين خالد وبين الضابط أسفرت عن لفت نظر جميع الموجودين وكـــان العدد كبيرًا، وتم إنهاء المأتم للأسف وتحول سرادق العـــزاء إلى هرج ومرج، وتمت السيطرة على الموقف عن طريـــق أهل المتوفى، الذين أبعدوا خالد بعيدًا وأخذوا يهدئون خـــاطر

الضباط، بل قام أهل المتوفى بأخذهم إلى منزل المتوفى حيث قام بالاعتذار إليهم عدد من أقارب المتــوفى مثــل الأســتاذ محمود نافع عضو مجلس الشعب وهو ابن المتوفى وكــذلك اللواء محمود شبانة – زوج ابنة المتوفى والمهندس فــوزي نافع ابن المتوفى واللواء أحمد شوقي الحفني أحــد أقــارب المتوفى وعدد آخر من كبار الشخصيات وطلبوا منهم اعتبار المسألة منتهية من أجل خاطرهم وخاطر المتــوفى وتقــدير ظروف خالد حيث أن والده وأشقائه معتقلون منذ مدة، وقــد قبلوا بهذا، وقام عدد كبير من أقارب المتــوفى بمصــاحبتهم حيث تم توصيلهم إلى مدينة ميت غمر، وظــن الجميــع أن الأمر انتهى عند هذا الحد، ولكن الحقيقة أن الأمر لم ينته بل كان قد بدأ، ذلك أن أحد الضباط أصر على إثارة الموضوع بعد زيادته طبعا و إدخال عناصر جديدة على ما حدث فعلاً، وكان هذا على عكس رأي وإرادة الآخرين، وقــام الضــابط بإبلاغ النيابة بأن عددًا من الناس قد طاردوه بالسيارة لــدى عودته من العزاء في المرحوم أحمد عبد الحميد نــافع فــي قرية دنديط ميت غمر، واتهم في ذلك أبناء وأقــارب العــم إسماعيل المصيلحي، وقامت النيابة باستدعاء أقارب المتوفى

للشهادة، إلا أنهم برغم الضغوط التي مورست عليهم أصروا على أن ذلك لم يحدث، وقرروا أن ما حدث هو مجرد مشادة كلامية وأن مسألة إطلاق الرصاص لم تحدث مطلقًا لأنهم صاحبوا الضباط بعد انتهاء العزاء إلى مكتب المباحث بميت غمر وبالتالي فمن المستحيل أن يكون ذلك قد حدث في الطريق لأنهم كانوا موجودين ولم يتركوهم إلا أمام مكاتبهم.

وكان من الطبيعي أن القضية سوف تحفظ لانعدام الدليل، ولكن هذا لم يكن يروق للضابط، الذي أصر على تأديب أهالي دنديط وجعلهم عبرة لمن لا يعتبر.

تحركت المباحث في كل اتجاه، وزعمت أن بقرية دنديط تنظيمات إسلامية متطرفة تمتلك سلاحًا واتهم عددًا كبيرًا من الأسماء في تلك التنظيمات منها اسمي بالطبع "محمد مورو"، ولكن تحريات المباحث الجنائية قالت إن هذا غير صحيح فلا يوجد حتى طلقة مسدس بقرية دنديط، وبرغم هذا التقرير الذي أثبته رجال المباحث الجنائية، تم تجهيز حملة كبيرة لمداهمة القرية، إلا أن مدير الأمن أصر على مصاحبة الحملة بنفسه لأنه شعر أن في المسألة بعد شخصي وبالتالي فمن الممكن تلفيق بعض الأشياء، ووجوده ضروري لكي يمنع التلفيق.

وبالفعل جاءت حملة كبيرة، - عربيات مصفحة، مئات الجنود، بنادق آلية، خوذات تلمع في الظلام، أجهزه لاسلكي، عربات مطافئ وإسعاف وغيرها -، وتم حصار القرية وتفتيشها بيتًا بيتًا واعتقال عدد كبير من أبنائها ولكن الحملة أسفرت عن لا شئ - فلم يوجد سلاح ولا حتى منشورات، الأمر الذي جعل وزارة الداخلية تقرر نقل بعض الضباط إلى أماكن أخرى.

ودخلت دنديط تاريخ القهر مرة أخرى، فالمرة الأولى كانت أيام الحملة الفرنسية حيث كانت دنديط مركزًا للفدائيين الذين يقاومون الحملة حيث يحتمون في حدائق النخيل الكثيفة التي كانت تتميز بها القرية، وقد أثبت عبد الرحمن الرافعي هذا الأمر في كتابه " تاريخ الحركة القومية في مصر " والمرة الثانية كانت أيام ثورة عام ١٩١٩ حيث نزلت قوات الاحتلال الإنجليزي إلى القرية وأطلقت الرصاص مما أدى إلى استشهاد كل من علي الغلبان والسيدة أم محمد عجوة من أبناء القرية، وكانت هذه هي المرة الثالثة وقد عبرت إحدى سيدات القرية عن المسألة برمتها وهي السيدة سميرة الشبكة حيث قالت للقوات المداهمة، أنتم إنجليز أم فرنسيين؟!.

عاشت القرية عدة أيام تحت الحصار، وغاب عنها بعض الأبناء الذين اُعتقلوا، البعض عاد بعد يوم وآخرون بقوا أسابيع وعدد ثالث غاب خلف الأسوار عدة شهور، وكان نصيبي من هذه الحادثة أنني كنت واحدًا ممن صدر الأمر باعتقالهم، إلا أنني كنت قد توقعت هذا عقب ما حدث في العزاء وتركت القرية وذهبت إلى القاهرة حيث كنت أسكن في شقة مفروشة لا تعرف عنها المباحث شيئًا وكان يسكن معي في تلك الشقة الصحفي محمد مهاود الصحفي في الوفد وعدد آخر من أبناء سمنود وكان تقديري أن الأمور ستهدأ بعد فترة و يسقط أمر الاعتقال تلقائيًا، ولكن الأحداث سارت في طريق مختلف مما سوف نفصله فيما بعد.

نعود إلى العم إسماعيل حيث كان لا يزال معتقلاً في سجن استقبال طره مع أبنائه وأقاربه ثم تم ترحيله إلى سجن أبي زعبل، حيث بقي هناك عدة شهور إلى أن أفرج عنه في النهاية، ولكن تلك الواقعة كانت قد أثرت فيه تأثيرًا مذهلاً.

كان العم إسماعيل يعيش حياته قبل تجربة الاعتقال بطريقة فيها القليل من الالتزام وكثير من التسيب، فقد كان لا يحرص على الصلاة ويسهر الليل على المقاهي، ويبذر أمواله تبذيرًا على المكيفات ولكنه كان في نفس الوقت رجلاً شهمًا ينجد الضعيف ويغيث الملهوف ولا يقبل الظلم ويبدو والله أعلم أنه نظرًا لطيبة قلبه ورجولة تصرفاته أراد الله أن يختم له ختامًا حسنًا فهيأ له هذه التجربة، التي جعلته يحرص على أداء الصلاة وقراءة القرآن والتفقه في الدين، وقد أظهر الرجل صلابة وصبرًا ورجولة في داخل السجن طوال فترة اعتقاله، وبعد الخروج من السجن استمر محافظًا على الصلوات وقراءة القرآن الكريم وأصبح لا يترك صلاة الفجر في المسجد، مما جعل الناس يحترمون هذا الرجل الذي انقلب حاله إلى الأحسن، ولم يمر إلا أقل من عام بعد خروجه من السجن حتى توفى الرجل، وبالطبع لم يترك يومًا من حياته، بل هذا هو أجله المحتوم وموعده المحدد في الموت، وكان هذا الرجل مثالاً لهؤلاء الذين يعملون عمل أهل النار حتى آخر أيامهم، ثم يعملون عمل أهل الجنة في أخريات أيامهم، فيموتون على ذلك فيدخلون الجنة، نسأل الله ذلك، وحياة هذا الرجل جعلتني أفهم هذا الدعاء المشهور لدى المسلمين "اللهم أحسن خواتمنا، أو نسأل الله حسن الختام".

وهكذا أراد بعض الضباط أن يؤدبوا العم إسماعيل، وأراد الله بذلك أن يحسن ختام العم إسماعيل، وفرق كبير بين إرادة العبد وإرادة الرب.

فرافيرو

كان من المقرر اعتقالي في إطار مداهمة قرية دنديط عقب ما حدث في سرادق العزاء، وكان المتوفى الذي حدثت الواقعة أثناء العزاء فيه هو جدي لأمي، وكانت خيالات الرائد مجدي تقول أنني أقود التيار الإسلامي في دنديط، وكنت قد قررت الابتعاد مؤقتًا عن دنديط إلى أن تهدأ الأمور ويسقط أمر الاعتقال ولكن نجاحي في النجاة من الاعتقال هذه المرة زاد من حدة الأساطير حولي لدى أهالي البلدة ولدى المرشدين التابعين للمباحث ولدى المباحث أيضًا، وفي الحقيقة فإن احتكاكات بيني وبين المباحث لم تكن تنقطع ويرجع ذلك إلى عدة أسباب منها عملي الصحفي والكتب التي أصدرها والتي لم تكن بالطبع تروق للجهات الأمنية وخاصة آخر كتبي في ذلك الوقت وهو كتاب من قتل سليمان خاطر؟ الذي صادرته المباحث إلا أن القضاء أفرج عنه فورًا مما حقق له رواجًا لم يكن منتظرًا، ومنها إنه كانت لي علاقات صداقة وزمالة بالكثيرين من أعضاء الجماعات الإسلامية بعضها بسبب الزمالة في الجامعة وبعضها بسبب

حرصي على الاقتراب من هذه الجماعات لمعرفة فكرها لتتسنى لي الكتابة عن الواقع المصري من خلال المعايشة وليس من برج عاجي كالآخرين، مما يعطي كتاباتي قيمة كبيرة، ومنها مشاركتي الكثيفة في انتخابات مجلس الشعب المتكررة منذ عام ١٩٧١ وحتى عام ١٩٨٧ حيث كان خالي المرحوم محمود نافع مرشحًا دائمًا في تلك الانتخابات وفي أغلب الأحيان على عكس إرادة الحزب الحاكم وكان في كل مرة يكسب الانتخابات ويصبح عضوًا معارضًا في مجلس الشعب، وكانت المباحث تتصور أنني وراء الحشد الجماهيري الذي يؤيده.

أما عن الأساطير حولي في البلدة فحدث ولا حرج، ذلك أنه بحكم علاقاتي بعدد من عناصر الشباب الإسلامي كانت تحدث بعض الأشياء التي تصلح مادة هامة لنسج الأساطير حولها، ذلك أنه حدث مثلاً عام ١٩٨١ أن التقيت بالصدفة، بالزميل أسامة حميد المشهور بأسامة جغرافيا قبيل حادث المنصة وكان معي أحد أبناء البلدة، وتطوع الأخ أسامة جغرافيا فشرح لي خطة المنصة وأحداث أسيوط بالكامل قبل حدوثهما وبالطبع تصورت ساعتها أن الأمر مجرد هراء،

ولكن بعد تنفيذ العمليتين يتصور هذا الشخص من أبناء البلـــدة أنني لا بد أن أكون عضوا قياديًا بتنظيم الجهاد، الأمر الـــذي راج في القرية بسرعة، ووصل إلى المباحـــث عـــن طريـــق المرشدين طبعًا، وهو ما ترتب عليه اعتقالي على ذمة تنظـــيم الجهاد، إلا أنه قد أُفرج عني بعد ثبوت عدم صلتي بالموضوع من قريب أو بعيد، واكتشفت أجهزة الأمن طبعًـــا أن مســـألة المنصة وأسيوط كانتا معروفتين لدى عدد كبير مـــن النـــاس وربما وصلت إلى الأجهزة فلم تعطها اهتمامًا، وهـــو الأمـــر الذي يعطي الانطباع بأن الأمور تسير في تنظيم الجهاد وفـــي الأجهزة أيضًا بطريقة عجيبة جدًا، فكيف تكون عملية بمثـــل هذه الخطورة معروفة وعلى قارعة الطريق ويتناقلها الأعضاء وغير الأعضاء وتنظيم الجهاد بهذه الطريقة!.

والمرة الثانية هي أنني بعد أحداث ١٩٨١، ذهبت للسؤال عن أسامة جغرافيا في الزقازيق حيث كان يقيم فـــي إحـــدى الشقق التي يسكنها الطلبة عادة، مع عدد آخر مـــن الطـــلاب وبعضهم حتى بدون أي اهتمامات سياسية، ولم أجد أسامة في الشقة وقررت أن أنتظره حتى يعود وتأخر الوقـــت وذهـــب سكان الشقة إلى النوم في غرفهم وقالوا لي أن أنام بإحـــدى الغرف بانتظار أسامة فربما يعود في الصباح.

ولا أعرف السبب الذي جعلني أقرر فجأة رغم أنني في ساعة متأخرة من الليل أن أخرج من الشقة وأذهب لحال سبيلي، وبعد عدة أيام عرفت أن أسامة قد عاد إلى الشقة متأخرًا ومعه صفوت الأشوح أحد قيادات تنظيم الجهاد، وأنه تمت مداهمة الشقة واعتقال كل من فيها، وبالطبع تعجب الآخرون كيف أفلتُّ، فقد كانوا قد ذهبوا إلى النوم قبل أن أخرج، وبعضهم اجتهد فقال أنني نزلت من فوق المواسير والآخرون قالوا إنه يلبس طاقية الإخفاء وثالث قال إنه فرافيرو العجيب وليس محمد مورو، وبالطبع انتشرت هذه الأقوال في أنحاء الزقازيق ثم ميت غمر وتزايدت الأساطير حولي.

ومرة أخرى، أثناء قضية الشيخ السماوي – كان قد صدر قرار باعتقال كل من الدكتور خالد عبد العظيم منصور وشقيقه الدكتور عادل عبد العظيم منصور، وذلك لأن الدكتور عادل عبد العظيم كان قد استضاف الشيخ السماوي على الغذاء بعد قيام السماوي بإلقاء خطبة العيد بالزقازيق عام ١٩٨٥، وكنت في تلك الليلة موجودًا بمنزل الدكتور عادل عبد العظيم منصور وسهرت معه ومع عدد من الزملاء بمنزله ثم نام كل منا في غرفة، ولكنني قبل الفجر بقليل قررت النزول للصلاة ثم السفر حيث أنني لم أنم ويبدو أن الأرق لم يجعلني أنام، وما أن غادرت المنزل حتى وجدت قوة كبيرة مداهمة، فتجاهلت الأمر وسرت في طريقي، وعرفت بعد ذلك أن كل من في المنزل قد تم اعتقاله وهؤلاء الذين اعتقلوا قد تعجبوا من أمري وكيف أفلتُّ هذه المرة أيضًا ولولا ثقتهم الكاملة في لاتهموني بالعمل مع المباحث، وبالطبع عُرفت هذه النقطة وتكاثرت حولها الأساطير عن محمد مورو الفرافيرو الذي يفلت دائمًا من المباحث في اللحظة الأخيرة، أو أنه كلما ظهرت المباحث لبس طاقية الإخفاء!.

وأكثر من مرة يدعوني البعض لحضور لقاء إسلامي في مكان معين وأتخلف عن هذا اللقاء، واكتشف بعدها أن هذا الذي كان يدعو للقاء ما هو إلا مرشد للمباحث جاء ليسجل بالصوت والصورة!.

كانت هذه الأمور وغيرها تنسج حولي هالة من الأساطير، رغم أنها كلها أمور حدثت بالصدفة ولم يكن لي أي يد فيها، والأمر لا يرجع إلى ذكاء أو خبره أو غيره.

وفي هذه المرة الأخيرة التي نحن بصددها، أفلتُّ من المباحث أيضًا ولكن ليس بالصدفة وإنما بحسن تقديري حيث أنني توقعت أن تحدث مداهمة لدنديط وبالتالي فلا بد لي أن أرحل حتى لا أقع في قبضتهم فأختفي بعض الوقت إلى أن تهدأ الأحوال وبالفعل سافرت إلى القاهرة ولبثت فيها أمارس عملي الصحفي كالمعتاد، وفي الوقت نفسه كان البحث عني يجري على قدم وساق في حقول دنديط وفي منازل أقاربي بميت غمر، وفي منزل خالتي زوجة اللواء محمود شبانة في القاهرة، وبالطبع لم تسفر هذه الجهود عن شيء، ومرة أخرى تلعب الصدفة دورها، ذلك أنني كنت قد ركبت سيارة تاكسي أجرة من المنزل الذي أقيم فيه وكان يقع أمام المعهد

الصناعي بالمطرية وكان يسكن معي فيه الزميل محمد مهاود الصحفي بالوفد وكنت أتجه إلى التحرير، وكان من الطبيعي أن يمر التاكسي بميدان ابن سندر بمنشية البكري في طريقه إلى العباسية أو حدائق القبة وهي المسارات الطبيعية لأي سيارة تريد الدخول إلى التحرير وحدث أن وجد السائق اختناقًا مروريًا عند ميدان ابن سندر فانحرف شمالاً في أحد الشوارع لتفادي هذا الاختناق، عن طريق الدخول في شارع علان حتى نهايته ثم السير باتجاه كوبري القبة وكانت شقة خالة زوجة اللواء محمود شبانة في أول شارع علان من جهة كوبري القبة، وكانت الساعة وقتها حوالي الثامنة مساءًا ووجدت عددًا من عربات الشرطة والجنود أمام العمارة التي تسكن فيها خالتي وقلت ربما يكون في الأمر شيء آخر لا صلة له بي، ولكن الحقيقية التي عرفتها بعد ذلك أن هذه كانت إحدى الحملات التفتيشية من أجلي، وقد مررت وسط الجنود بالسيارة الأجرة دون أن يلتفت إلي أحد.

على أي حال مارست حياتي العادية في القاهرة، وكلما عرفت أخبار حملات التفتيش من أجلي تعجبت لهذه الحكومة التي تشغل نفسها برجل مثلي!.

كنت في ذلك الوقت قد قررت التقدم لخطبة زوجتي الحالية وأم أولادي وكان علي أن أذهب إلى منزل أهلها في الزقازيق من أجل ذلك، وبالفعل حددت موعدًا لذلك وذهبت في ذلك اليوم للتقدم لخطبتها في منزل أهلها بالزقازيق، ولم أكن أدرك أنني أفلت مرة أخرى من الاعتقال، حيث كان أسامة حميد الشهير بأسامة جغرافيا قد سقط في قبضة المباحث وتصادف أنه كانت معه أجندة تليفونات بها عنواني ورقم تليفوني في الشقة التي أسكن بها في القاهرة، وبالطبع تحركت قوات الأمن لاعتقال كل من جاء اسمه في أجندة أسامة، وكان أسامة موجودًا في ذلك الوقت مع أحمد راشد وهو عضو نشط في تنظيم الجهاد وقد ضبطت لديهم بعض الأوراق التي تحدد أسلوب وطريقة وكروكي لهروب بعض المسجونين من ليمان طره، والعجيب أن هذه الخطة قد نفذت فيما بعد فيما يعرف بالهروب الكبير الذي نفذه عصام وخميس مسلم ومحمد الدسوقي عام ١٩٨٨.

جاءت قوات الأمن مساءًا فداهمت الشقة التي كنت أسكن فيها أمام المعهد الصناعي بالمطرية وبالطبع لم تجدني، فاعتقلت من كان موجودًا بالشقة وهم محمد مهاود الصحفي بالوفد، ناصف طالب بكلية التجارة جامعة الأزهر ومعه بعض أقاربه، محمد عزبية أحد أبناء دنديط وكان قد جاء ليسأل عني، واستثني من هذا الاعتقال المهندس هشام لأن خاله كان مديرًا للأمن العام!. وقد بقي هؤلاء في الاعتقال مددًا مختلفة وقد كتب المرحوم الأستاذ مصطفى شردي مقالاً ناريًا عن وزير الداخلية تحت عنوان لماذا اعتقلت محمد مهاود يا وزير الاعتقالات!.

كنت أنا في شأن آخر، حيث ذهبت بالفعل لمنزل أسرة زوجتي الحالية وأم أولادي وتقدمت لخطبتها ثم ذهبت بعد ذلك إلى دنديط حيث أنني قد قدرت أنه لا بد أن تكون المراقبة هناك قليلة بعد أن تأكدوا أنني لست موجودًا بها.

قضيت ليلتي في دنديط، وكذا نهار اليوم التالي، على أساس أن أسافر في المساء وبالطبع كان الأمر قد أثار جنون المباحث حيث علموا أنني غادرت الشقة في صباح اليوم الذي داهموها فيه مما جعلهم يعتقدون أنني جيمس بوند.

وكمحاولة أخيرة اتصل ضابط المباحث بميت غمر بخالي المرحوم محمود نافع وكان عضوًا بمجلس الشعب في ذلــك الوقت، وقالوا له أن موقفهم أصبح محرجًا ولا بد من تســليم الدكتور محمد مورو وأنهم يتعهدون بإعادته بمجرد انتهــاء تحقيقات النيابة معه وهي لن تستغرق ساعة علــى الأكثــر وأقسموا بشرفهم على هذا، وجاء خالي إلى منــزل الأســرة بدنديط وعرض علي الأمر، ولما كنت متأكدًا من أننـــي لــم أفعل شيئًا ولم أرتكب أي مخالفة قانونية من أي نوع فــإنني وافقت على تسليم نفسي، وبالفعل أحضرت حقيبتي ووضعت ملابسي وبطاطين احتياطيًا، وذهبت إلى المباحــث ومــا أن دخلت إلى مقر المباحث حتى عرفت أن الأمر مختلفًــا فقــد تصاعدت حدة أجراس التليفونات، وتحدث الضابط أمامي مع أحدهم في التليفون وقال له أنه سوف يأتي معه بعلبة الزبادي وعرفت أنني هذه العلبة من الزبادي.

وطلب الضابط من خالي أن يتركني معه ويـــذهب هـــو لأحواله، متعهدًا له أنني سوف أعود في نفس الليلة، وكالعادة صدق خالي هذا التعهد وما كان يملك إلا أن يصدق. بل أكثر من هذا طلب منه أن يأخذ حقيبـــة ملابســـي معـــه، ولمـــا اعترضت على ذلك وقلت له لتتركها معي احتياطيًا، أصـــر الضابط وقال لا داعي لذلك.

بدأ الضابط حواره معي بالعتاب على ما حدث في العزاء وقلت له أن أهل المتوفى قد اعتذروا لك بما فيه الكفاية، وأنا أكرر اعتذاري ولكن لي عتاب أيضًا عليك لأنك قد زعمـــت أنه حدثت مطاردة وهذا لم يحدث ثم قلت له ما الداعي إلـــى اعتقالي، فقال سوف تعرف لا تتعجل الأمور، فقلت له إذًا أنا معتقل، حسنًا، لماذا لم تترك الحقيبة والملابس معـــي، فقـــال ضاحكًا لأنك لست ذاهبًا إلى فندق بل إلى السجن يا خفيـــف ومع هذا الكلمة بدأت رحلة العذاب!

الترحيل

وضع المخبر القيود في يدي بناءً على أمر أحد الضباط، واقتادني إلى سيارة فولكس صغيرة حيث أجلسني على المقعد الخلفي، وجلس بجانبي، ثم أغلق الكرسي الأمامي، وبعد فترة وجيزة جاء ضابط فقاد السيارة بنفسه حيث انطلقت السيارة في اتجاه المنصورة، وما أن غادرت السيارة ميت غمر وبدأت في الطريق الزراعي إلى المنصورة بادرت الضابط بقولي أظن أنه لا داعي لهذه القيود الآن.

- بل لا بد منها.
- لماذا.
- لأنني أريد هذا.
- سكتُّ فترة ثم عدت فقلت للضابط، لقد نكثت في العهد الذي قطعته على نفسك.
- لا تشغل بالك بالعهود فأنت في قبضة المباحث.
- حسنًا، ولكن لماذا لم تترك لي حقيبة ملابسي، فهذا أمر طبيعي وكل المعتقلين يحملون معهم حقائب ملابسهم وبطاطين.

- كان هذا أيام زمان!.
- أعتقد يا بك أنني لا أستحق الاعتقال.
- لا بل تستحق ألست تدير الانتخابات وألست تكتب في الصحف والمجلات وتصدر الكتب.
- أعتقد أن إدارة الانتخابات أمر مشروع، كما أنني أؤيد خالي وهل لو ترشح خالك في الانتخابات ألا تؤيده، أما الكتابة في الصحف وإصدار الكتب فهذا أمر يحدث في أي بلد حر أو نصف حر أو حتى ربع حر.
- ومن قال ذلك أننا في بلد حر.
- الحكومة تقول هذا.
- سلامات يا حكومة، ثم أضاف بالمناسبة هل العمل في الصحف وكتابة المقالات تدر ربحًا كبيرًا!.
- كبيرًا جدًا إذا كنت موهوبًا خاصة أن بعض الصحف العربية تعطي للصحفيين والكتاب أجورهم بالدولار.
- جئتنا نيلة في حظنا الهباب، سوف أمنعك من الكتابة في كل الصحف.

- أعتقد أنك لست وزيرًا للداخلية، وأعتقد أنه حتى لو أمكنك منعي من نشــر مقــالاتي فــي الصــحف المصرية فإنك لا تملك هذا بالنسبة للصحف غيــر المصرية، هل تعلم أن لهذه الصحف مكاتبًا رسمية في القاهرة ولا تملك أنت إغلاقها وربما لا يملــك هذا وزير الداخلية.
- ما علينا، ما يعنيني هنا أنــك وغيــرك يجــب أن ترتعدوا من المباحث.
- أعرف هذا ولكني أود أن ألفــت نظــرك إلــى أن الزمن قد تغير.
- أنت واهم الزمن لم يتغير وسوف تعرف قريبًا ثــم أضاف هل تعلم أنني الآن أستحق ترقيــه بعــد أن قبضت عليك وأنت الذي تسببت في إرهاق الأجهزة بحثًا عنك في عدة محافظات.
- أعتقد أنك تبالغ، فأنا لا أستحق كل هــذا المجــد، ولكني أشكرك على أي حال على هذا التقدير.

بعد حوالي ٤٠ دقيقة وصلت السيارة إلى مقر مباحث أمن الدولة بالمنصورة، حيث تركوني في أحد الغرف بعض الوقت، ثم استدعوني للتحقيق، ووجدت أمامي ضابط آخر طلب مني كتابه استمارة تعارف عن اسمي وعن أقاربي وعن أهم مؤلفاتي فكتبت اسمي وأسماء أقاربي خطأ، وكتبت عددًا من عناوين مؤلفات لم أؤلفها ومقالات لم أكتبها، والعجيب أن ذلك الضابط أخذ يناقشني في هذه الكتب التي لم أكتبها والمؤلفات التي لم أؤلفها والمقالات التي لم أنشرها! وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل وتم نقلي إلى أحد أقسام الشرطة بالمنصورة انتظارًا لزميلي في الصباح.

وفي هذا الحجز الضيق المظلم، كان علي أن أواجه عددًا من المتهمين في القضايا الجنائية أو المحبوسين أو العائدين من السجن ووفقني الله إلى أن أسألهم بمجرد دخولي، هل منكم أحد من ميت غمر فقال أحدهم أنا من ميت غمر، ومن قرية المقدام وهي قرية قريبة من قريتنا، فقلت له أنا فلان من عائلة كذا فقال الرجل أنا أعرفك وأعرف أقاربك، وتعجب الرجل قائلاً لماذا أنت هنا، فقلت له إنها السياسة، وكان هذا القول وهذا الرجل الذي عرفني كافياً لأن يوفر

علي كثير من المشقات والمشاكل التي كنت أسمع عنها والتي تحدث عادة في الحجز التابع لأقسام الشرطة، كان معظم الموجودين في حالة يرثى لها ملابس ممزقة وبعضهم جائع وآخرون يتشاجرون على لا شيء أخذت مكاني بجانب ذلك الرجل، وبدأت أتكلم معه.

- هل أنت ذاهب إلى السجن أم عائد منه.
- أنا عائد من اعتقال طويل لمدة عامين في سجن الواحات.
- بدون حكم محكمة.
- نعم اعتقال وليس سجن.
- لماذا.
- قال لي المخبر عليك أن تأتي تكلم ضابط المباحث نصف كلمة ومنها إلى الحجز ثم السجن ثم عامان من الاعتقال ثم العودة وحتى الآن لم أتكلم مع هذا الضابط النصف كلمة.
- لا حول ولا قوة إلا بالله

وكان معي في ذلك الوقت حوالي ٧٠ جنيهًا ووجدت أنه لا لزوم لهم معي فأنا ذاهب إلى السجن على الأرجح، فأعطيته جزءًا من المبلغ، ثم أعطيت الباقي لأحد المحتجزين وطلبت منه أن يستدعي عساكر الحراسة لاستحضار طعام للجميع، وفي مثل هذه الحالات فإن عساكر الحراسة وهم غالبًا فقراء جدًا يستجيبون لمثل هذه الطلبات على أساس أن ينالوا شيئًا من المال أو الطعام، وبالفعل أحضر العساكر الخبز والفول والطعمية والحلاوة بجزء من المبلغ واستولوا على الباقي، ولا أدري من أين حصل هؤلاء على هذا الطعام في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل!

أكلنا وشربنا جميعًا، وأخذ جميع المتهمين والمحتجزين يسب الحكومة والظلم ويطالبونني بأن أتحدث عنهم وعن قطاعهم، فقلت لهم أنني مثلهم لا أملك من أمر نفسي شيئًا، وكان الفجر قد أقترب فتيممت لعدم وجود ما يكفي من الماء وصليت الفجر وحاولت أن أنام دون جدوى.

وفي حوالي السادسة صباحًا- سمعت من ينادي على ويفتح باب الحجز ويقتادني إلى حيث سيارة الترحيلات، وهي سيارة أشبه بالصندوق المغلق اللهم إلا من شباك صغير جدًا مغلق بقضبان الحديد والسلك، ودفعني أحد الجنود إلى داخل هذا الصندوق ثم أغلق الباب بقفل كبير، وجلس حارسان بسلاحهما في مؤخرة السيارة، ووجدت نفسي مع عدد آخر من المعتقلين بشتى التهم داخل السيارة، كانت السيارة تسير في الطريق، ويبدو أنها سيارة قديمة فقد كانت تهزنا هزًا شديدًا ويحاول كل منا الإمساك بأي شئ حتى لا يقع أو يتخبط، وكان كلما جاء مطب من المطبات تجد الجميع قد أرتطم بالقاع أو السقف أو بزميله على حسب الظروف، ومع الوقت بدأنا نتعود على المطبات والقلقلة المستمرة التي تحدثها حركة السيارة، بينما راح البعض منا يتحدث إلى الحارسين، فيسألهم عن اسمهما وعن بلدهما، والبعض قام بتوصيتهما أن يذهبا إلى أهله ويخبروهم بأن ابنهم معتقل وقد وعد هذان الحارسان بذلك ولا أدري إن كانا قد وفيا بهذا العهد أم لا.

كانت جدران السيارة شيئًا مثيرًا للغاية، كانت تكاد تكـــون مغطاة بكتابات من شتى الأصناف والأوصاف، فهذا قد كتب عليها اسم وذاك كتب يسقط الظلم وآخر كتب يا رب ورابـــع كتب الله أكبر ولله الحمد وخامس كتب إسلامية – إســـلامية وسادس كتب جماعة المسلمين، وسابع كتب تنظيم الجهاد مر من هنا وثامن كتب أنكر كل شئ في النيابـــة، وتســـتطيع أن تعرف تاريخ مصر الحديث من خلال هـــذه الكتابـــات فقـــد سجلت أسماء وشعارات وتوصيات، ولا أعرف حتـــى الآن كيف وبأي وسيلة كتبت هذه الأشياء علـــى تلـــك الجـــدران الحديدية، وإذا كنت قد فهمت أو تفهمت كل هـــذه الأشـــياء المكتوبة والمثيرة فإنني لم أفهم عبارة أنكر كل شـــيء فـــي النيابة، حيث عرفت فيما بعد أن الاعتراف في المباحـــث لا قيمة له وفقًا للقوانين المصرية فـــالمفروض أصـــلا ألا يـــتم التحقيق إلا في النيابة، وأنه إذا أعترف أحد فـــي المباحـــث تحت الضغط أو التعذيب أو الخوف، فإنه إذا أنكر في النيابة فإن اعترافه في المباحث لا قيمة له من الناحية القانونية على أي حال استمرت تلك الرحلة الشاقة مـــن المنصـــورة إلـــى القاهرة أكثر من ثلاث ساعات حيث كان على تلك الســـيارة

أن تمر على عدد من السجون التي من المقرر أن ينزل بهـــا المتهمون مثل سجن الزقازيق أو أبو زعبل وغيرهما، وكانت كلما مرت السيارة بمدينة أو قرية أو مكان به بعض النــــاس، يقوم الموجودون بها بإطلاق الهتافات بصـــوت عـــال مثـــل إسلامية إسلامية لا شرقية ولا غربية، خيبر خيبر يا يهـــود جيش محمد سوف يعود، زكي بدر يـــا جبـــان يـــا عميـــل الأمريكان وغيرها من الشعارات وبالطبع شاركت في تلـــك الهتافات فهي فرصة لإثبات الوجود وقطع الملل فـــي نفـــس الوقت.

وصلت السيارة إلى طريق المعادي ولم يبق بها ســـواي، وأحسست أنني أتجه إلى سجن طره أو بالتحديد أحد ســـجون منطقة طره، ولكن السيارة تجاوزت سجن استقبال طره، ثـــم ليمان طره، وأدركت ساعتها أنني في طريقي إلى الجحيم إلى غرفة التحقيقات ذات السمعة المخيفة والتي تحـــدثت عنهـــا صحف المعارضة المصرية في ذلك الوقت وكنت قد قـــرأت فيها شيئا عما يجري في هذه المكان وكان هذا المكـــان هـــو معهد أمناء الشرطة حيث تم تخصيص مكان فيـــه لإجـــراء التحقيقات الخاصة بحادثة أبو باشا.

أحلى ثمرة طماطم في التاريخ

ما أن اقتربت السيارة من معهد أمناء الشرطة، حتى وجدت أسناني تصطدم بقوة، وكذا ارتجف جسمي ولم تعد قدماي قادرة على حملي، وأخذت أتلو ما أحفظ من القرآن الكريم، وفُتح باب السيارة واقتادني الجنود إلى أحد الأبواب حيث تم تسجيل اسمي وتفتيشي وعصب عيناي بقطعة قماش قذرة، وكذا تقييد يداي إلى الخلف.

كان من الواضح أنني أشعر برعب شديد وكأنني أدخل إلى بيت أم الغول كما كانت تحكي القصص التي سمعناها في الصغر والتي كانت تصيبنا في الطفولة برعب شديد. كانت كل أجزاء جسمي ترتعد بشدة وأسناني تصطدم بقوة، وسمعت أحد الضباط يضع يده على كتفي قائلاً تشجع يا دكتور ألست رجلاً! ولم أعرف ساعتها هل هذا نوع من السخرية أم محاولة لتشجيعي، والله تعالى وحدة يعلم ماذا كان يقصد بذلك.

وصلت إلى مكان فسيح أو هكذا تخيلته، ثم جاء من يخلع ملابسي قطعة بعد قطعة ولم يترك لي إلا ما يستر العــورة والحمد لله أنه ترك لي هذا، ثم اقتادني أحد الجنــود بعــد أن تأكد من القيود في يداي إلى الخلف، والعصابة القذرة علــى عيناي بحيث لا أرى شيئًا، ثم أخذ يقول لي من فتــرة إلــى أخرى انزل سلالم، اصعد سلالم، احني رأسك أمامك ســلك، اقفز أمامك حفرة وهكذا ويبدو أن هذا لم يكن كله حقيقيًا بــل هي محاولة للتخويف والرعب والله تعالى أعلم.

وبعد عدة ساعات من المشي والجري والقفــز ونــزول سلالم وصعود سلالم... الخ.. وصلت إلى مكان أظنه صالة كبيرة بها عدد كبير من أمثالي تحــت حراســة عــدد مــن المخبرين والجنود، وطلب مني أحــد المخبــرين أن أجلــس مكاني دون حركة، فنفذت الأمر بدون كلام، ورويدًا رويــدًا بدأت أفقد الإحساس بالزمن فلا أعرف النهــار مــن الليــل وبدأت أتعايش مع المكان وأدرك ما حولي.

كان المكان عبارة عن صالة كبيرة، يوجد بها عـــدد مـــن المعتقلين المطلوبين للتحقيق، وبالطبع كانت هناك العديد من غرف التحقيق، وكان صراخ المتهمين يشق عنـــان الســـماء ونسمعه بوضوح في أماكننا وكذا نباح الكلاب أو صـــيحات ضباط التحقيق! وكان كلما طلب المحققون أحد المتهمين يأتي إليه المخبر ويسأله عن اسمه ثم يقتاده إلى تلك الغرف، وفي كل مرة كان يتحرك المخبر بيننا نشعر بمزيد مـــن الرعـــب فربما يكون المطلوب هو أنا هذه المـــرة، ويلـــتقط الجميـــع أنفاسهم بعد أن يتأكدوا أن المطلوب أحد غيرهم.

كان هذا الجو جزء من عملية مقصودة بالطبع، فبالإضافة إلى البرودة التي نحس بها لأننا جميعًا عراة إلا مـــا يســـتر عوراتنا، فضلاً عن العصابة التي تغطي عيوننا، بالإضـــافة إلى القيد الحديدي باليدين المقيدتين إلى الخلف، وهو الأمـــر الذي جعل من المستحيل أن يستطيع الإنسان أن ينام فلا هو قادر على النوم على ظهره، فهذا مستحيل بسبب تقييد اليدين إلى الخلف ولا هو قادر على النوم علـــى بطنـــه لأن يـــده تصبحان معلقتين، ولا هو قادر على النوم على جنبه وهكـــذا وحتى من يتغلب عليه النوم رغم ذلك، فإن ركلات المخبرين

وصفعاتهم كانت كفيلة بجعل النوم يطير من عينيه، وكان معنى هذا أن يظل الإنسان بلا نوم، وكذلك فإن العصابة التي على العينين ومع الوقت الطويل التي تظل فيه على العينين ومع قذارتها كانت تتسبب في التهاب العينين، بل وتسببت مع أحد المتهمين وهو أسامة جغرافيا في جرح غائر أعلى الأنف، وهذا مكان حساس من الناحية الطبية حيث أنه لو حدث تلوث بكتيري به فإن من السهل وصول البكتريا إلى المخ، وعليك أن تدرك حجم المعاناة لأن البعض ظل على هذه الحال أربعين يومًا، على أي حال كان نصيبي من ذلك ستة أيام فقد كان حظي أفضل من غيري.

كان اليوم مقسما إلى ثلاث ورديات، يتناوب عليها ثلاث أطقم من المخبرين، وكانت إحدى هذه الورديات شديدة القسوة فلا تسمح لأحد بالحركة، وتستمر طوال الوردية تشتم هذا أو تركل ذاك أو تصفع أحدنا.. دون أن تسمح لأحد بالذهاب إلى دورة المياه أو الصلاة أو غيرها وكان البعض يتبول على نفسه وأحيانا يتبرز على نفسه، فيضطرون اضطرارًا إلى السماح له بالذهاب إلى دورة المياه ليغسل هذه القاذورات وليس رحمة به ولكن حتى لا يشمون الرائحة على

حد قولهم وكانت الوردية الثانية لا تجهد نفسها بشيء، فلا هي تشتم ولا تركل ولا تسمح أيضًا بالذهاب إلى دورة المياه أو أداء الصلاة، وكانت هذه الوردية تقطع الوقت بالحديث مع بعضها البعض فهذا يتحدث عن مشاكله مع أولاده أو زوجته أو زوجة ابنه وهذا يتحدث عن غلاء الأسعار وكنت أستمع إلى هذه الأحاديث وأتسلى بها رغم كل الظروف القاسية أما الوردية الثالثة فكانت تتسم بشيء من الرحمة، وكان المخبرون الذين يقومون بها لا يشتمون أحدًا ولا يركلون أحدًا، بل يشغلون وقتهم كله بأخذنا واحدًا بعد الآخر لقضاء الحاجة في دورة المياه أو الوضوء ويسمحون لنا بالصلاة وكثيرًا ما كانوا يظهرون لنا التعاطف ويقولون لنا إنكم مجانين حيث أنه لا أمل في التغيير وأننا نتعب أنفسنا على الفاضي! على حد قولهم.

ولم أعرف هل هذا التفاوت في المعاملة كان يرجع إلى تقسيم للأدوار وفقًا لأوامر وخطة مسبقة أم كان نوع من التفاوت بين الناس في طريقة معاملتهم للآخرين، والله تعالى أعلم.

كان ما يربطنا بالعالم الخارجي في ذلك المكان عدة أشياء رغم قسوته فقد كان الآذان يصل إلينا من المساجد القريبة وكان هذا يثير فينا بعض الثبات والصبر والأمل، كما أنه في بعض الأوقات كانت تصل إلينا أصوات بعض الأغاني من الإذاعة ويبدو أن الكافيتريا التابعة للمعهد كانت تدير الراديو في بعض الأوقات أو أن هناك مقهى قريب من المكان.

كنت أشعر في بعض اللحظات أن الأرض تدور بي بشدة وأحيانًا بهدوء كما لو كنت في أرجوحة ويبدو أن هذا كان يرجع إلى الجوع أو إلى العصابة التي على العينين، وأحيانًا أخرى كنت أشعر أنني أطير في الهواء ولم أعرف لذلك سببًا علميًا حتى الآن.

وبمناسبة الجوع، فإنه كان مقررًا لكل منا – رغيف واحد وقطعة جبن على هيئة مكعب صغير في كل يوم، وكان هذا بالطبع لا يكفي ولما عرفت أن هذا هو المقرر قررت أن أصوم، فما دام الأمر كذلك أي وجبة واحدة صغيرة في اليوم، فلماذا لا تكون بعد المغرب، ويبدو أن جميع الموجودين مثلي فعلوا نفس الشيء وهكذا كانت فرصة عظيمة للصيام، وأذكر أنه في أحد الأيام نسى المخبرون أن يأتوا بهذا الرغيف وتلك القطعة من الجبن المخصصة لكل

منا، وتصوروا أن الدورية الأخرى قد أتت بها، ولم يجرؤ أحدنا أن يطالب بها رغم أن المغرب كان قد أذن وكذلك العشاء، ولا أدري لماذا واتتني الشجاعة للمطالبة بالطعام وقلت للمخبرين أنه لم يأت لنا طعام هذا اليوم، والعجيب أنهم استجابوا لي وأحضروا الطعام للجميع.

وبمناسبة الطعام، أذكر أن أحد المخبرين كان يتحدث مع زميل له بالقرب مني، وتدخلت معهما في الكلام فنهرني في مرة ولكزني أخرى إلا أنني ظللت أشارك في الكلام، وكان هذا في آخر أيامي بذلك المكان حيث جرت التحقيقات معي وتأكدوا أنني لا صلة لي بشيء وأحسست بشيء من الشجاعة مع شيء من التعود على المكان، ويبدو أن إصراري على المشاركة في الحديث أصبح أمرًا واقعًا فاستسلم له المخبران، ومع الوقت سألني أحدهم عن اسمي ومهنتي وبلدي، وتبين أنه يعرف أحد الناس في بلدتي وأنه صديق له، وقلت له إنه من أقاربي، فما كان منه ألا أن أعطاني رغيفا وثمرة كبيرة من الطماطم، وكانت هذه الثمرة من الطماطم أحلى ثمرة طماطم أكلتها في حياتي وربما أحلى طعام أكلته في حياتي وبالطبع ذلك يرجع إلى الحرمان والجوع والظروف النفسية التي كنت أعيشها، على أي حال لقد علق المخبر الآخر على هذا الأمر قائلاً " يا بخت من كان النقيب خاله ".

كانت الأقوال في ذلك المكان تسير على وتيرة من العذاب مستمرة فمع عصابة العينين التي أدت إلى رمد العيون لـــدى البعض وإلى جروح فوق الأنف لدى البعض الآخر مما هدد بوصول التلوث إلى المخ لأن هذا المكان قريب الصلة بداخل الجمجمة وهو أمر معروف طبيًا، ومع قلة الطعـــام وغيـــاب النوم نظرًا للقيود باليدين خلف الظهر، ومع حالة العـــرى إلا مما يستر العورة، ورغم أننا كنا في الصيف في أوائل شهر يوليو فإن الزكام والعطس أصبح سمة ثابتة بل إن الـــبعض أصيب بالتهاب رئوي، أكثر من هذا فإن الذباب كان متحالفاً مع المباحث حيث راح يلسعنا لسعًا دون أن نستطيع له هشًـــا ولا نشًا بسبب القيود وكان الأمر يصل إلـــى حـــد التعـــذيب الحقيقي بالذباب وخاصة هؤلاء الذين كانت هنـــاك جـــروح بأجسامهم نتيجة التعذيب داخل غرف التحقيق.

كان المكان يضم مصريين وفلسطينيين وأحيانًـــا أتـــراك، وأذكر أن أحد الأتراك أخذ يصيح أريد حمام، أريـــد حمـــام ويبدو أنه كان يعني أنه يريد الذهاب إلى دورة المياه ولم يفهم المخبرون ذلك فأوسعوه ضربًا وقالوا له هـــل هـــذا وقـــت استحمام يا ابن الكلب!.

ولكن كل هذا كان في كفة، والتحقيقات في كفة أخرى وقد بدأت التحقيقات معي بعد وصولي بيومين، لم أذق فيهما النوم بالطبع وكان هذا مقصودًا لإرهاقي نفسيًا وبدنيًا، ولما جاء دوري جاءني أحد المخبرين وسألني هل أنت فلان، نعم تعالى معي، أخذت أقرأ أي قطعة من القرآن وأسأل الله أن يخفف عني، دخلت غرفة التحقيقات، وشعرت بالدفء رغم أنها كانت مكيفة، وكانت لها رائحة غريبة لا أدري هل هي رائحة تلك الغرف هكذا أم هي رائحة السجائر مع التكييف أو الخمر أو خلافه

- هل تعرف لماذا أنت هنا.
- لا أعرف.
- يبدو أنك لا تريد أن تخرج من هنا بخير، من الأفضل لك أن تتكلم، لأنك في النهاية ستتكلم، بالذوق وبغير الذوق وهنا تدخل آخر في الكلام قائلاً أتركه لي يا باشا، هل تدخن؟.
- نعم.
- إذن ها هي سيجارة.
- كيف أمسكها وأنا مقيد.

- فك قيوده أيها الجندي.
- شكرًا.
- أسمع يا دكتور محمد، أنت فرد ونحن دولة، أنت طاقة ونحن طاقة وبالطبع طاقتك ستنفذ مهما صبرت، ونحن طاقتنا لا تنفذ، والقرآن الكريم يقول لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وسواء تكلمت بالذوق أو تكلمت بعد إصابتك بعاهة ستتكلم، وأنا أعرف أنك ذكي وعليك ألا تلقي بيدك إلى التهلكة.
- والله العظيم لا أعرف شيئًا.
- حسنًا لا فائدة.

وانصرف الرجل، وبدأت الركلات والصفعات تنهال علي هكذا وكذا سيل من الشتائم.

- هل ستتكلم.
- لا أعرف شيئًا.
- ضع في يده القيود.

وضع أحد الجنود في يدي القيود وتعالى صوت بكائي وأخذت أقسم بالله أنني لا أعرف شيئًا، ثم قام أحد الجنود بتعليقي من القيود على أحد الأبواب، وكان أمرًا مؤلمًا جدًا ولو استمر لمدة دقائق لأصيبت يدي بالشلل

- سأتكلم.

قام الجندي بإنزالي من فوق الباب وقلت على الفور أنني مستعد للاعتراف على أي شئ والتوقيع على ذلك

- نحن لا نريد أي شيء ولا نلفق قضايا، نريد فقط أن تعترف بدورك في اغتيال أبو باشا.
- والله العظيم لا أعرف شيئًا عن هذا، أنا صحيح أعرف عددًا من أعضاء تنظيم الجهاد وأعرف أيضًا عدد من الإخوان المسلمين وأعرف حتى بعض عناصر التكفير والهجرة بل والشيوعيين لأنني بحكم عملي الصحفي واهتمامي بالقضايا الفكرية لا بد أن أطلع على أفكار الناس جميعًا وأنا بالمناسبة عضو في نقابة الصحفيين المصريين واتحاد الكتاب أيضًا.
- طظ في نقابة الصحفيين واتحاد الكتابة يا ابن...
- أيها الجندي أحضر لي الكهرباء.

بدأت عمليات الصعق بالكهرباء وارتفع صراخي دون جدوى انتهت الوجبة، وهدأت الأحوال وقال لي المحقق سأتركك لتفكر بعض الوقت وحين أعود أريد أن أعرف منك دورك في محاولة اغتيال أبو باشا.

مرت عدة ساعات وأنا واقف في الغرفة مقيدًا أحـــاول أن أفكر في أي شئ أنسبه إلى نفسي، وبعد ذلك جـــاء محقـــق آخر.

- أنت تاعب الباشا ليه يا ابن... اسمع يا ولد أكيد إنك قرأت عن الباستيل وعن الســجن الحربــي وعــن سجون هتلر.
- نعم قرأت.
- سترى الآن أن ما قرأته عن هؤلاء شيء رحيم جدًا بالمقارنة بما سوف تراه.
- يا باشا إنني قد قرأت في الصحف قبل اعتقالي أنكم بالفعل قد قبضتم عن المسئولين عن حادثة اغتيـــال أو باشا.
- لأ دا كلام جرايد.
- ولكن بعض المسئولين أكدوا ذلك.
- يبدو أنه لا فائدة منك أنت مراوغ يا أمن " وكانـــت كلمة يا أمن هي نداء لأحد الجنود دون ذكر اســـمه ويرجع ذلك إلى حرص المحققين على عدم معرفة المتهمين بأسماء الجنود والضباط وتحفظًا من رفع قضايا تعذيب.

ما أن نطق الرجل بهذه الكلمة، حتى انفتح باب من الجحيم، فأصبح التعذيب بكافة الوسائل – كهرباء – صفعات ركلات، تعليق على الأبواب، وأخذ الدم ينزف من فمي وأسناني وأنفي بغزارة حتى يكاد جسمي كله يُغطى بالدم، واستمرت الوجبة بعض الوقت هو مثل الدهر طولاً بالطبع وانتهي الأمر، واقتادني الجنود إلى الخارج.

لبثت بالخارج ما شاء الله لي أن ألبث، ثم استدعوني مرة أخرى، وبادرني أحد المحققين قائلاً هل عرفت الآن دورك في محاولة اغتيال أبو باشا.

- أقسم بالله أنا لا أعرف شيء وليس لي دور وآخر حدودي هي القلم والأوراق.
- حسناً نحن نعرف أنك لم تشترك في المحاولة، ولكن على الأقل تعرف المسئولين عنها، فأنت علاقاتك كثيرة، ومعلوماتك كبيرة وأنت صحفي شاطر.
- أقسم بالله مرة أخرى أنني لا أعرف شيئًا.
- أنت دماغك ناشفة.

وبدأت وجبة أخرى من التعـذيب، ثـم هـدأت الوجبـة وبادرني بالسؤال.

- هل تعرف أسامة جغرافيا.
- نعم أعرفه.
- هل تعرف أنه رسم كروكي لسجن طـره ووضـع خطة للهروب.
- لا أعرف هذا.

وجبه أخرى من التعذيب.

- ولكن أسامة التقى بك قبل أسبوعين.
- نعم، وكان هذا لأنني كلما احتجت معرفـة بعـض المراجع في موضوع من الموضوعات ألجأ إلـى أسامة في ذلك لأنـه خبيـر بالكتـب والمراجـع والمكتبات وسوف أكف عن هذا نهائيًا والله الغنـي عن مراجع وكتب أسامة.
- هل تعرف أحمد راشد.
- لا أعرفه ولم يسبق لي الالتقاء به.
- يا أمن خذ المتهم وأذهب به إلى الدورة ليغسل هذه الدماء وأسمح له بالدخول والصلاة.
- الحمد لله.

ظننت أنني قد وصلت بهذا الموقف إلى نهاية التحقيقات، وحمدت الله وأخذت انتظر خروجي من هذا المكان ولو إلى السجن، وأخذت أتوقع أن ينادي علي المخبر لترحيلي، ولكن كانت هناك مفاجأة لي، فقد جاء بالفعل المخبر ونادى علي ولكنه اقتادني مرة أخرى إلى غرفة التحقيقات.

- اسمع يا بني ما فات كان كوم وهذه المرة كوم، وبشرفي لن أتورع عن قتلك ودفنك في الصحراء إذا لم تتكلم.

وبدأت وجبه من التعذيب حتى قبل أن يسألني أي سؤال، ويبدو أنها كانت وجبه تمهيدية ثم بدأت الأسئلة.

- هل تعرف... وبدأ يذكر أسماءًا لا أعرفها.
- لا أعرف أحدًا من هؤلاء.

وجبه تعذيب.

- هؤلاء مجموعة من الفلسطينيين هاربون من السجون الإسرائيلية وقد تسللوا إلى مصر عن طريق الحدود، وكانوا يعدون العدة لتدبير عمليات ضد إسرائيل عن طريق الحدود المصرية وكذلك القيام بعمليات ضد الشخصيات الإسرائيلية بمصر أو السياح الإسرائيليين.

- لا أعرف شيئًا عن هذا ورأيي معروف في أن من يريد محاربة إسرائيل فليحاربها من داخل الأرض المحتلة.
- ولكن هؤلاء اعترفوا أنهم التقوا بك في مجلة المختار الإسلامي.
- أنا رئيس تحرير المجلة ومن الطبيعي أن يلتقي بي أناس من مختلف الأشكال والألوان ويتحدثون معي دون أن أكون مطالبًا بحفظ أسمائهم أو معرفة نواياهم، كما أن من الطبيعي أن أمثال هؤلاء لن يخبروني بنواياهم، كما أنهم بالطبع سيقدمون لي أنفسهم بأسماء مستعارة.
- أنت مراوغ.

وجبة تعذيب.

- أسمع يا ابني سأدخل معك في الموضوع مباشرة.
- من الأفضل ذلك.
- أنت تكتب عن القضية الفلسطينية أليس كذلك.
- نعم.
- أنت إسلامي الاتجاه.

- نعم.
- الإسلاميون تاريخيًا وواقعيًا هم الذين قاموا بجميع أنواع العنف ضد إسرائيل.
- نعم.
- هل توافق معي، على أن الإسلاميين المهتمين بالقضية الفلسطينية هم المسئولين عن عمليات اغتيال الإسرائيليين في القاهرة.
- أوافق.
- إذن أنت زعيم منظمة ثورة مصر، ولم تكن تلك المنظمة قد انكشفت بعد حتى ذلك الوقت حتى ذلك الوقت.

ووجدتني أصاب فجأة بنوبة من الضحك ثم البكاء، وتركني حتى التقطت أنفاسي وقلت له هذا شيء أكبر من طاقتي وأعتقد أنك تمزح.

وجبة تعذيب لم يسبق لها مثيل.

- على الأقل أنت تعرف هؤلاء، ألست إسلاميًا، ألست متعاطفًا مع القضية الفلسطينية.
- التعاطف والكتابة شيء والعنف شيء آخر.

انتهى الأمر على ذلك في ذلك اليوم، ولكنه تكـــرر عـــدة مرات استجوابات – تعذيب – ثم استجوابات وتعذيب، نفـــس الأسئلة بطرق مختلفة، وفي النهاية قال المحقق.

- لقد تأكدت أنك مجرد صحفي حمار ليس لـــك فـــي الطور ولا في الطحين.
- الحمد لله – أرجو أن تفرج عني يا باشا ما دمـــت متأكدًا من ذلك.
- الأمر ليس بهذه السهولة – ولكن يمكن أن أفـــرج عنك فورًا ومن هنا بشرط.
- تشجعت قليلاً وقاطعته قائلاً لن أعمل مرشدًا.
- ومن قال لك أننا نريدك مرشدًا! لسنا أغبيـــاء إلـــى هذه الدرجة.
- إذن ماذا تريد.
- كلما جاءك أحد من فلسطين أن تبلغنا بذلك.
- آسف ليست هذه مهمتي.
- حسنًا ستذهب إلى السجن وأنت حر، قـــد تســـتمر بضعة أشهر هناك دون أن يسأل عنك أحد.
- الأمر لله أولاً وأخيرًا.

حكايات عنبر التأديب

بعد ستة أيام قاسية ومروعة في معهد أمنـــاء الشـــرطة، جاءني أحد المخبرين قائلاً هل أنت فلان.. نعم، قال مبروك إفراج وظننت أنه قد صدر قرارًا بالإفراج عني، وحمدت الله كثيرًا ولكن الواقع أن الإفراج الذي عناه المخبر كان مجـــرد الخروج من هذا الجحيم ولو إلى السجن، وفي الحقيقة فـــإن المخبر كان محقًا في ذلك حيث أن الخروج من هذا المكـــان في حد ذاته إفراج كبير، بل هو الإفراج بعينه.

انتقلت بعد ذلك إلى سجن استقبال طره، وتم إيداعي فـــي عنبر التأديب، وسجن استقبال طره يضم عنبرين " أ " و " ب " وبينهما عنبر للتأديب وغرف للإدارة.

وبعد أن تم تسجيل اسمي ثم استقبالي الاستقبال المعهـــود لأي زائر جديد من ضرب وإهانة وصفع وركل ثم اقتيـــادي إلى أحد الزنازين بعنبر التأديب، وكانت الزنزانة كبيرة قوي، وتصل مساحتها إلى حوالي عشرين متـــر " ٥ × ٤ متـــر " وبها نافذة عالية ولم يكن بها بالطبع بطانية أو مراتب أو أي شيء، ولكن بمجرد وصـــولي قـــام الاخـــوة المســـجونون

والمعتقلون بالسجن بتدبير الأمر فورًا وتم تزويدي بالبطاطين والملابس والمراتب وكذلك كمية لا بأس بها من الطعام وإناء للماء وآخر للبول من البلاستيك وقد تعجبت من هذا الأمـــر وحمدت الله على ذلك، ثم اكتشفت بعد قليل من الوجود فـــي السجن أن الاخوة الذين يعيشون في السجن منذ فترة طويلـــة قد نجحوا في إقامة علاقات مـــع صـــغار الجنـــود وبعـــض المحتجزين وأنهم استطاعوا أن يدبروا أمورهم وأمور كـــل من يستجد عن طريق هذه العلاقات، بل اكتشفت ما هو أكثر من ذلك، حيث رأيت الحبال الطويلة المربوط بهـــا أكيـــاس البلاستيك تنتقل من زنازين إلى زنازين عن طريق الشبابيك الحديدية، كما رأيت عددًا من الفتحات التي قام الاخوة بفتحها في الجدران بين الزنازين المختلطة بحيث أصبح من الســـهل التحدث إلى الآخرين عن طريقها وكذا تبادل الشاي والطعام والكتب والجرائد وغيرها وكانت الكتب والصحف تهرب عن طريق الزيارات وكذلك عن طريق الأعضاء الذين يـــذهبون إلى المحاكم ثم يعودون، وكان معنى هـــذا أن الاخـــوة قـــد انتصروا على الظروف وكيفوها لصالحهم بحيث أصبح هناك تنظيم متكامل يديره الاخوة لتدبير شئون المسجونين من طعام

وشراب واتصالات وملابس وبطـــاطين وغيرهـــا، بـــل إن الاخوة نجحوا في تهريب عدد مـــن الأســـلاك الكهربائيـــة وحولوها إلى سخانات لطهي الطعام أو غلي الماء أو صـــنع الشاي وتذكرت ساعتها رواية كنت قد قرأتها منذ فترة وكانت تتحدث عن أحوال المسجونين في ســـجون ألمانيـــا النازيـــة وكيف تغلب هؤلاء على الظروف القاسية وهي الرواية التي كانت تحت عنوان " عريان بين ذئـــاب " وظننـــت ســـاعة قراءتها أن هناك شيء من المبالغة، ولكنني بعد هذه التجربة أدركت أنه مهما كان القهر فإن الإنسان قادر على تـــرويض هذا القهر واحتوائه وتجاوزه.

بدأت أندمج في حياة السجن، وكنت أقفز فـــوق الشـــباك لأتحدث مع الآخرين، وعرفت الكثير من الأخبار والأوضاع بالسجن فقد كان السجن يضم عددًا كبيرًا من الاخوة، بعضهم من الجماعة الإسلامية وبعضهم من الجهاد وبعضـــهم مـــن الإخوان المسلمين والبعض الآخر جاء بطريق الخطأ ولم يجد من يصلح هذا الخطأ، الـــبعض متماســـك والـــبعض ســـعيد والبعض منهار وحالته سيئة وهكذا.

وعرفت أنه من الأمور المعتادة أن من يخرج من التحقيق في معهد أمناء الشرطة يأتي إلى عنبر التأديب في سجن استقبال طره إلى أن يتم ذهابه إلى النيابة ويبقى في الحبس الانفرادي في عنبر التأديب إلى أن ينتهي التحقيق معه في النيابة، وذلك كان أمرًا مقصودًا لأنه لو ذهب إلى العنابر فإنه يستطيع أن يلتقي بباقي المسجونين ويمكن أن ينسق معهم في كيفية التعامل مع النيابة ويعرف بالتالي ما قالوه في النيابة فيستعد لذلك، ولكن في الحقيقة فإن المسجونين تغلبوا على هذا الأمر حيث كانت الأحاديث تتم عبر الفتحات التي في الجدران أو عبر الحديث من النوافذ، وكانت هناك نشرة أخبار يومية يقرأها أحد الاخوة ذوي الصوت القوي وهو الأخ محمد رشدي، وكانت مادة هذه النشرة تأتي من خلال الصحف المهربة عن طريق الزيارات أو الاخوة الذين يذهبون إلى النيابة أو مكاتب التظلمات ويعودون وكان هذا أمر يحدث كل يوم تقريبًا حيث التظلمات مستمرة، لأن الاعتقال كان مستمرًا وكذا الذاهبون إلى الطب الشرعي وغيرها من الوسائل، وقد عرفت من خلال هذه النشرات الإخبارية اليومية التي يلقيها الأخ محمد رشدي أن العديد من الزملاء الصحفيين والعديد من الصحف قد أبدت اعتراضها

على اعتقالي واستنكرت هذا وقامت بالدفاع عنـــي، وكـــذلك بعض منظمات حقوق الإنسان، وأذكر في هـــذا الصـــدد أن قصاصات الصحف التي كانت تحتوي على أخبار خاصة بي أو مقالات للدفاع عني كانت تصلني أولاً بأول عن طريـــق الاخوة الذين كانوا يجمعونها يوميًا ويوصلونها لي عن طريق وضعها في أكياس النايلون وربطها بالأحبـــال حيـــث يـــتم توصيلها إلي عن طريق النوافذ، وبهذه المناسبة فإنني أشـــيد وأشكر هؤلاء الذين دافعوا عنـــي مـــن الـــزملاء والكتـــاب والصحفيين وخاصة الحاج حسين عاشور والدكتور محمـــد يحيى " المختار الإسلامي " والأستاذ عادل حسين ومجـــدي أحمد حسين ومحمد عبد القدوس " الشعب " وكـــذا الأســـتاذ مؤمن الهباء رئيس تحرير جريدة النور فـــي ذلـــك الوقـــت وأخص بالشكر طبعًا الزميل العزيز أيمن نور الذي كان دائم الدفاع عني ونشر أخباري في صحيفة الوفد وكـــذا الزميـــل مجدي حلمي بجريدة الوفد وغيرهم من الـــزملاء والكتـــاب والصحفيين، وفي الحقيقة فإن هذه الأخبار والمقـــالات التـــي كُتبت ونُشرت دفاعًا عني ساهمت إلى حد كبير في تخفيـــف الآلام القاسية التي كنت أعانيها وأحسست ساعتها أن مصـــر ما زالت بخير.

كان من المعتاد أن يكون الحبس انفرادي في عنبر التأديب وذلك حتى تنتهي تحقيقات النيابة وبعد ذلك يتم نقل المتهم إلى أحد العنابر بالسجن عنبر "أ" أو عنبر "ب" حيث الأمور مختلفة تمامًا. وكان هذا الحبس الانفرادي يعطي الإنسان الفرصة للتأمل أو قراءة القرآن الكريم أو أداء النوافل من الصلوات فضلاً عن الفروض طبعًا.

وكان من المثير أيضًا التأمل في الكتابات الموجودة على الجدران والتي كتبها البعض بالملاعق أو المسامير أو حتى قشر البرتقال، كانت تلك الكتابات خليطًا هائلاً من تاريخ مصر السياسي وكرنفالاً كبيرًا لمختلف القوى السياسية في مصر بل والعالم العربي، فالبعض رسم مصحفًا وسيفًا، والبعض رسم سيفين متقاطعين بينهما شمس، والبعض كتب الله أكبر ولله الحمد، أو الله أكبر والعزة للإسلام، والبعض سجل اسمه، أو كتب شعارًا مثل الله غانينا، والرسول زعيمنا، والإسلام ديننا، والقرآن دستورنا والموت في سبيل الله أغلى أمانينا، وهناك كتابات من أمثال الجبهة الشعبية الفلسطينية، أو حركة حماس، حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة

الإسلامية، فتح مرت من هنا، عاش كفاح الطبقة العاملة عاش كفاح الشيوعيين، عاشت الأممية التروتسكية وغيرها من الشعارات، وكنت أقضي الساعات الطويلة في تأمل ما سجله هؤلاء الذين حلموا بالتغيير ودفعوا ثمن هذا الحلم

وفي بعض الأحيان كانت قاعدة الحبس الانفرادي في عنبر التأديب تنكسر لأسباب الزحام مثلاً أو لأن شخص في عنبر "أ" أو عنبر "ب" قام بإحدى المخالفات التي تستوجب تأديبه أي تحويله إلى عنبر التأديب، وفي إحدى المرات جاء شخص رفيع طويل القامة يرتدي بدلة جينز وتم إيداعه معي في الزنزانة، وقلت لا بأس هذا أمر مفيد فيمكنني أن أتحدث معه، وإن كنت قد أوجست خيفة أن يكون من المباحث وقد جاء لاستدراجي، ولكنني قلت لنفسي ليس لدي ما أخفيه وما أخاف عليه وبالتالي فلا داعي للعُقد في التعامل مع الناس، ولكن المفاجأة الحقيقية في هذا الشخص أنني طلبت منه أن أعرف اسمه فقال.

- اسمي نزيه.
- نزيه ماذا.
- نزيه نصحي.

- نزيه نصحي ماذا.
- نزيه نصحي راشد.

وكان هذا كافيًا لأن أصمت فقد تصورت أنه مسيحي فاسمه الثلاثي يوحي بذلك، وقلت لا بأس هذا يثبت الوحدة الوطنية حتى داخل السجون المصرية.

كان ذلك الشخص قد جاء إلى الزنزانة في الفترة ما بين الظهر والعصر وعندما سمعت آذان العصر قمت للوضوء والصلاة وفوجئت به يتوضأ هو الآخر ثم يقول هيا إلى الصلاة، ولم أتمالك نفسي من الضحك قائلاً هل أنت مسلم.

- نعم بالطبع مسلم.
- ولكنني تصورتك مسيحيا من خلال اسمك الثلاثي.
- لقد حدث هذا مع الكثيرين من قبل وقد تعمدت أن أتركك محتارًا بعض الوقت من أجل إثارة جو من الدعابة.

واكتشفت فيما بعد أن نزيه نصحي راشد هو أحد قيادات تنظيم الجهاد!.

* * *

كانت الزيارات قد بدأت تأتي لي، فقد قام أهلي بالبحث عني ومعرفة مكاني، ونجحوا في ذلك في النهاية، وفي الحقيقة فإن الفضل في ذلك يرجع إلى التنظيم المحكم للاخوة داخل السجون الذين يقومون بإبلاغ أهالي أي معتقل جديد يصل إلى السجن بمكان اعتقاله وذلك عن طريق توصية بعض الزائرين أو المحامين الذين يلتقي بهم الاخوة في النيابة أو في محاكم التظلمات بالذهاب إلى عناوين هؤلاء الأهل وإخبارهم بمكان وظروف ابنهم، وفي أول زيارة لأهلي في السجن كان من الطبيعي أن تنهمر الدموع وأن يكون الموقف دراميًا ومع الوقت يعتاد الإنسان على هذه الأحوال ولكن في عموم الأمر فإن زيارة الأهل تخفف الكثير عن الإنسان المعتقل.

وأطرف ما كان في هذه الزيارة الأولـــى، أنهـــا ضـــمت جدتي العجوز، وهي جدتي لأمي، وتبلغ من العمر في ذلـــك الوقت ٨٥ عامًا وهي مصابة بالربو ولا تكـــاد تســـتطيع أن تسير بضع خطوات بغير أن تصاب بأزمة ربوية تمنعها من الحركة، وحكى لي أشقائي كيف أن جـــدتي أصـــرت علـــى الحضور معهم إصرارًا غريبًا اضطروا معه إلى تلبية طلبها، وكان من العجيب أنها سارت ثلاثة كيلو مترات على أقدامها دون أن تصاب بنوبة الربو، بل كانت تسابق الآخـــرين فـــي المشي على حد قولهم، فقد كان من المعتاد أن تقف السيارات التي تقل الزائرين خارج منطقة طره ثم يسير هؤلاء داخـــل المنطقة على أقدامهم حتى يصلوا إلى بوابة السجن.

وقلت لهم حقًا إنها العجوز البندقة، فهي مثل البندقة قويـــة جدًا من الخارج شديدة الحنان من الداخل وهكذا كانت جدتي أمينة أحمد الحفني وهي شقيقة المرحوم الدكتور محمود أحمد الحفني كانت سيدة شديدة الصلابة من الخارج، لها شخصيتها القوية الفاعلة، ولكنها كانت في نفس الوقت شديدة الحنان من الداخل وكانت لها أياديها وفضـــلها علـــى جميـــع أقاربهـــا وجيرانها وأهل بلدتها والجميع يحترمها ويشـــهد لهـــا بهـــذا الفضل.

كانت صحف المعارضة قد شنت حملة قوية على التعذيب في معهد أمناء الشرطة واضطرت إدارة المباحث لنقل غرف التحقيقات من المعهد إلى سجن استقبال طره وغيره من السجون وذلك بعد أن طالب بعض أعضاء مجلس الشعب بعمل لجنه لتقصي الحقائق من أعضاء المجلس والانتقال إلى معهد أمناء الشرطة للتحقق من الأمر.

وهكذا وجد الموجودون بعنبر التأديب الموجه لغرف الإدارة بالذات أنهم أصبحوا مرة أخرى في قلب الجحيم، ولكن كان هناك من فكر في مغامرة جريئة ووجدتني داخل هذه المغامرة بحكم أنني صحفي، فهذه فرصة عظيمة لممارسة الصحافة بدأ عدد من الاخوة يطلب من أهله إمداده بكاميرا صغيرة، وبالفعل تم تهريب عدد من الكاميرات الصغيرة ووصلت ثلاث كاميرات وعدد من الأفلام، فقد وصلتني واحدة مهربة في حلة محشي ووصلت إلى الزميل عصام عبد اللطيف كاميرا صغيره جاءته عن طريق الزميل الصحفي أيمن نور، وثالثة نجح محمد الزمر في الحصول عليها من أهله الذين كانوا بحكم الخبرة متخصصين في تهريب كل شيء إلى داخل السجون عن طريق تصميم بعض الأواني وخاصة " الترمس " وتهريب الأشياء داخل مخبوزات في هذه الأواني وهو أمر كان من المستحيل اكتشافه.

وبعد وصول هذه الكاميرات والأفلام نجحنا في تصـــوير عدد من مناظر التعذيب على الطبيعة ولم يشعر بنـــا أحـــد، وكانت الصور تظهر الناس تحت التعذيب وهم عراة إلا مـــا يستر العورة، والبعض معلق على الأبواب... وهكذا.

ونجنا مرة أخرى في تهريب هذه الأفلام بل والكـــاميرات إلى الخارج ووصلت إلى الزميل الصحفي أيمن نور فاحتفظ بها حيث أنه كان هناك قرارًا بحظر النشر في تلك القضـــية من النائب العام، وبمجرد رفع الحظر قامت الوفد بنشر تلـــك الصور مما أثار ضجة هائلة في الأوساط الصحفية والسياسية واضطر الوزير زكي بدر على الزعم بأن هذه الصور ملفقة، ولم تكن هذه الصور ملفقة بالطبع بل كـــان هنـــاك أبطـــال مجهولون وراء هذه المغامرة أمثال محمـــد الزمـــر، نعـــيم الفلسطيني، محمد الصاوي، عصام عبد اللطيف وكاتب هـــذه السطور، ولو أنصف أيمن نور لحكي القصة ووضح للقارئ من هم هؤلاء الذين كانوا وراء تلك المغامرة ولكان بذلك قد وضع حدًا لاتهامه بالكذب والتلفيق على يد الوزير زكي بدر ولأسكت كل الذين انتقدوه، وعلى كل حال فإن ذلك لم يكـــن ليغير هؤلاء شيئًا، وربما يكون أيمن نور قد حـــرص علـــى

سلامة هؤلاء، ولكن الواقع أن المباحث قد عرفـــت بالفعـــل حقيقة القصة واستدعتنا للتحقيق في هذا الأمر، واعترفنا بـــه ولكن المباحث وجدت أنه من المفيد عدم إثـــارة الموضـــوع حتى لا تعترف بأن الصور حقيقية وغير ملفقة.

حكاية وراء كل باب

استمر حبسي في عنبر التأديـــب حـــوالي شـــهر حتـــى استدعوني في النهاية إلى الذهاب إلى النيابة، ولا أدري لماذا تأخر عرضي على النيابة طوال هذه الفترة، هل يرجع ذلـــك إلى أن التحقيقات لم تكن قد استكملت بعد وبالتالي فلا بد من الانتظار حتى تنتهي هذه التحقيقات، أم أن ذلك يرجـــع إلـــى إعطاء الفرصة لشفاء الجروح وضياع آثار التعذيب حتى لا تسجلها النيابة.

المهم أنني ذهبت إلى النيابة في عربة التـــرحيلات، وكـــان معي في تلك الرحلة عدد من الاخوة والزملاء، وكانـــت هـــذه فرصة لرؤية ما هو خارج السجن، فقد كان على الســـيارة أن تقطع الطريق مرورًا ببعض شوارع القـــاهرة، وكنـــا نبـــادر بإطلاق الهتافات من النوافذ للفت نظر الناس في الشوارع إلينا، وكان بعض الناس يلوح لنا بيده مشجعًا، والبعض الآخر يتجنب النظر إلينا وكأنه خائف أن تُسجل له إحدى الكاميرات الخفيـــة هذه النظرات فيقع في مشكلة مع الحكومة، والبعض الثالث كان ينظر إلينا كما لو كنا كائنات من كوكب آخر وهكذا.

ووصلت إلى النيابة، وجاء دوري في التحقيق، وتم فتح المحضر، إلا أنني تمسكت بحقي في وجود محامي معي، فاستجاب وكيل النيابة وتم استدعاء أحد المحامين، وفي انتظار وصول المحامي قلت لوكيل النيابة إنك باعتبارك خصمًا شريفًا، أو هكذا المفروض – فإنني أحملك المسئولية وأبلغك بأن هناك مجزرة حقيقية من التعذيب تمت وتتم حتى الآن بسجن استقبال طره!، وإنه يجب على القضاء المصري أن يفعل شيئًا لوقف هذه المجزرة، وقال الرجل هل أخذ بطانية مثلاً وأنام أمام السجن، إنني سوف أسجل لك كل ما وقع عليك من تعذيب أو على غيرك، وإلى هنا تنتهي مهمتي، وقلت له أعتقد أن واجبك وواجب القضاء أكبر من هذا بكثير، ثم تغير مجرى الحديث فأخذ الرجل يتحدث معي عن بعض كتبي ومقالاتي وآرائي إلى أن جاء المحامي وهو الأستاذ ثروت صلاح شحاتة وبدأ التحقيق، وقد وُجه إلى تهمة إعادة تشكيل تنظيم الجهاد فأنكرت التهمة ثم نظر إلى آرائي السياسية فقلت له هذه منشورة في كتبي ومقالاتي وأرى أنها ليست موضوع تحقيق قضائي ثم أثبت الرجل آثار التعذيب علي وقرر تحويلي إلى الطب الشرعي ثم أصدر قراره الذي جاء عجيبًا وهو العرض على النيابة مرة أخرى بعد انتهاء فترة الاعتقال!

وعدت من النيابة إلى السجن حيث وجدت مفاجـــأة فـــي انتظاري ذلك أنني وجدت هرجًا ومرجًا شديدًا وتفتيشاً فـــي عنبر التأديب وعرفت بعدها أن أحد المحبوسين على ذمة ما يسمى بتنظيم المواسير قد قام بحادثة طريفة، ذلك أنه كان قد وصل إليه كمية من الطعام في كيس كبير، فقام بتفريغ هـــذا الكيس من الطعام ونفخة بشده ثم ربطه خلف باب الزنزانـــة مباشرة قبيل مرور الضابط أحمد الذي كان يمر في كل يوم لأخذ التمام، وما أن فتح الضابط الباب حتى سقط هذا البـــاب على الكيس فانفجر، فذُعر الضباط ذعرًا شديدًا وظن أن قنبلة قد انفجرت ووقع على ظهره بينما أخذ المتهم بلال يضـــحك بشدة.

وبالطبع نال بلال عقابًا شديدًا على هذه الحادثة الطريفـــة وتسبب بالطبع في تكدير الأحوال مدة من الزمن في السجن.

ولكن الأطرف هو حكاية تنظيم المواسير هذا، وهو تنظيم كان يضم عددًا من شباب الثانوي والإعدادي في كل من بورسعيد والجمالية التي ترتبط ببور سعيد عن طريق بحيرة المنزلة، وكان يقود هذا التنظيم طالب في كلية هندسة بورسعيد قسم الهندسة البرية، وتصور أنه يمكن تطوير بندقية الرش العادية بتركيب ماسورة من مواسير السفن عليها وبذلك تتحول إلى بندقية حقيقية وبالطبع هذا كلام ساذج، والأعجب من هذا أن بعض أعضاء هذا التنظيم العجيب اعترف في النيابة بأنه بعد تحويل بنادق الرش إلى بنادق حقيقية سيتم بها الاستيلاء على أسلحة الجيش الثاني ثم الجيش الثالث ثم الزحف إلى القاهرة لتحرير عبود الزمر من السجن! وبالطبع كان هذا كلاماً مضحكًا أكثر منه حقيقة بل هو أشد شيء بمأساة كوميدية، إلا أنها تكشف كيف وصل الرفض للحكومة والتعاطف مع عبود الزمر لدى هذا القطاع من الشباب صغير السن!.

على أي حال بعد عدة أيام تم استدعائي إلى مقر الطب الشرعي، وقد حملتني سيارة الترحيلات المعتادة إلى مقر الطب الشرعي بالقرب من ميدان رمسيس وكان على السيارة هذه المرة أن تمر في أكثر مناطق القاهرة ازدحامًا، وقد قام الموجودون بالسيارة وأنا معهم باستغلال هذه الفرصة للهتاف وترديد الشعارات للفت أنظار الناس وخاصة في الأماكن المزدحمة.

وأشهد أن الطب الشرعي تعامل معنا بمنتهى النزاهة، بل قامت إحدى الموظفات باستدعاء عامل البوفيه وطلبت منه أن يأتي لكل منا بمشروب – وهكذا هي مصر – وقام الطبيب الشرعي بتوقيع الكشف علينا وتسجيل كل آثار التعذيب بأجسادنا وأبدى أسفه أكثر من مرة على هذا الأمر، وقد ظن في البداية أنني نجل الدكتور عبد الوهاب مورو رئيس جامعة القاهرة وعميد الطب الأسبق وقال إنه أستاذه، وقد وضحت له أن المسألة مجرد تشابه أسماء لا أكثر.

بل أشهد أيضا أن ضابط الترحيلات هذه المرة كان شديد الرحمة بنا، وكان يؤكد أنه يصلي وأنـــه يصـــطحب ابنـــه الصغير إلى الصلاة بمسجد سيدنا الحسين بالقـــاهرة، وقـــام بشراء عدد من أكواب عصير القصب لنا جميعًا فـــي أحـــد إشارات المرور أثناء رحلة العودة.

وبانتهاء تحقيقات النيابة معي ثم العـــرض علـــى الطـــب الشرعي تصورت أنه قد آن الأوان لأن أترك عنبر التأديـــب إلى عنبر "أ" أو عنبر "ب" ولكن الأيام مرت دون أن يحـــدث ذلك، واستشرت عدد من الاخوة من حولي فـــي الزنـــازين وكان حالهم مثل حـــالي، وانتهـــى الأمـــر بالاتفـــاق علـــى الإضراب عن الطعام لتعزيز مطلبنا بـــالخروج مـــن عنبـــر التأديب إلى عنبر "أ" أو "ب" حيث الأمور هناك أفضل كثيرًا.

وبالفعل نفذنا الإضراب عن الطعام، ولكـــن العجيـــب أن الإدارة جاءت فأخلت الزنزانة من كل شيء مـــن البطـــاطين والمرتبة بل وجردل الماء وجردل البول وكل شيء تقريبًـــا، واستمر الأمر يومين قاسيين حيث كان علينا أن نقاسي ألـــم الجوع والعطش معًا وكذلك التبول علـــى الأرض، ومنعنـــا بالطبع من الذهاب إلى دورة المياه لقضاء الحاجة، وكان أمرًا

فظيعًا، وقد قلت للضابط محمود أكثر من مره أنني مضرب عن الطعام فقط ولست مضربًا عن الشراب والماء وكذا لست مضربًا عن قضاء الحاجة، إلا أنه قال لي ساخرًا ما دمت مضربًا عن الطعام فلتضرب عن كل شيء.

مرت الساعات بطيئة ثقيلة واشتد بي العطش، وأخذت أتضرع إلى الله أن يجعل لي مخرجًا.

وفي النهاية استجابت الإدارة وتم ترحيلنا إلى عنبر "أ" وأحسست أنني قد أُفرج عني للمرة الثانية حيث الحياة في عنبر "أ" أفضل كثيرًا، فالزنازين تفتح فترات طويلة بالنهار والاخوة يقومون بتنظيم المباريات الرياضية وكذا الدروس العلمية والدينية، فهناك دروس في العقيدة وهناك دروس في الفقه والتاريخ واللغة الدينية، وهناك دروس في اللغات تركي وألماني وفرنسي.. وهناك حتى دروس في الكمبيوتر، وعمومًا كل من كان يجيد علمًا من العلوم كان يقوم بتنظيم حلقات تعليمية لمن يرغب في تعلم هذا العلم بل إن كل الصحف والكتب تقريبًا كانت موجودة، ولكل شيء ثمن، فيمكن الحصول على الصحف الرسمية بضعف ثمنها وصحف المعارضة بأربعة أضعاف ثمنها وهكذا.. وكان

الموجودون قد نظموا المسألة مع المخبرين للحصول على كل شيء بمقابل وقد عرفت أن هذا من شأن السجون المصرية دائمًا وأن من الممكن مع الوقت ترويض الوحوش!.

كان الموجودون خليطًا من شتى الأنواع جهاد.. جماعة إسلامية سلفية – إخوان أناس جاءوا خطأ.. وهكذا، كان هناك أساتذة جامعة وطلاب، أطباء ومهندسون، مدرسون وعمال، وتلاميذ، ضباط وجنود معتقلون، كان هناك الشاب الصغير والرجل العجوز وكأن مصر كلها بمختلف طوائفها وأعمارها كانت مصغرة في هذا الجمع الصغير.

كانت الحياة تسير بطريقة تكافلية رائعة، فالطعام الذي يأتي من الأهل يتم توزيعه بالتساوي، وكذا هناك توزيع للملابس والنقود ولم يكن أحد يشعر بالتفرقة فالجميع متساوون بصرف النظر عمن تأتيه أموال وطعام وملابس من أهله أو هذا الذي لا يأتيه شيء من الأهل بسبب فقرهم أو إهمالهم له ولم تكن هناك مشكلة من أي نوع في هذا الصدد، بل كان البعض أحيانًا يقوم بجمع الأموال لصالح أسر بعض المعتقلين في الخارج ممن أصابتهم الحاجة بسبب غياب عائلهم خلف القضبان.

والشيء الوحيد الذي لم يكن يتم توزيعه هو السجائر، وكان هذا مصدر قلق لي، حيث كان على أن أحصل على السجائر بطريقتي الخاصة وفي الحقيقة فإن أهلي كانوا يحضرون لي كمية كبيرة منها كنت أقوم بتوزيعها على عدد من المدخنين في السجن وبعضهم كان يدخن علنًا والآخر سرًا، وشيئًا فشيًا تشكل ما يسمى بتنظيم السجائر حيث كان كل من يحصل عليها يعطي الباقين، والطريف أيضًا أن السجائر أثارت مشكله في السجن، فالبعض ينهرنا عن شرب السجائر والبعض يأمرنا بالكف عن ذلك والبعض الثالث يقول لنا إنها حرام وهكذا وبعد سلسلة من المشاكل مع الاخوة تم تجميع المدخنين في عدد من الزنازين المتجاورة واستراح الجميع، وأُطلقت على هذه الزنازين اسم زنازين المدخنين!.

وكان من نصيبي أن أسكن في نفس الزنزانة مع محمد طه البحيري وشعبان حسين وكل منهما مدخن، ولكن هذه السكنى فتحت أمامي بابًا خطيرًا من أبواب الصحافة، حيث بدأ محمد طه البحيري يحكي لي قصته وقد كان المتهم الثاني في قضية أبو باشا الملفقة وطلب مني نشر هذه القصة ووعدته بذلك، ثم قام باستدعاء كل من مجدي غريب وفاروق عاشور لاستكمال باقي عناصر القصة، وبالفعل سمعت القصة منهم وكتبتها وتم تهريبها إلى الخارج وطلبت من البعض توصيلها إلى جريدتي الشعب والوفد، فقامت جريدة الشعب بنشر ملخصا لها أضاع قيمتها تمامًا، إلا أن الوفد أفردت لها ثلاث صفحات كاملة مع العناوين فأحدثت هذه القصة ضجة واسعة!.

والآن نستمع إلى هذه القصة الدامية كما سمعتها من أطرافها الثلاثة داخل السجن.

التلفيق والتعذيب
أسرار وخفايا أخطر قضية تلفيق في القرن العشرين

والآن وبعد أن ظهرت الحقيقة كضوء الشمس تطارد خفافيش الظلام – وتلتقم أفاعي الكذب والإفك وبعد أن أسفرت تحقيقات النائب العام عن تقارير الضباط الملفقة – وعاهات مستديمة برأس وجسم المتهمين زورًا وبهتانًا – الآن وبعد أكثر من سبعة أشهر من الحبس والتعذيب والتلفيق – سبعة أشهر من آلام النفس والجسد وعذاب الليالي الطوال – عذاب الأم والأخ والأخت والجيران – خوف الأيام الكئيبة – ودعاء الأمهات المنتظرات – ا لآن ماذا نقول – وهل يكفي أن نقول ولكن هل نملك إلا أن نقول؟ رغم أن الكلمة مطاردة في الزنازين والمطارات ماذا نقول – هل رحل حلم الإنسان من مصرنا الحبيبة هل اغتال زكي بدر ومدرسته في التلفيق والتعذيب كرامة مصر؟ هل دمرت تلك المدرسة سكينة الأمهات والأبناء؟ هل وضعتنا هذه القضية جميعا في

قفص الاتهام – ما هو ضمان أي إنسان يعيش على هذه الأرض هل كل منا معرض لمثل هذا الذي حدث لهؤلاء الثلاثة الضحايا مجدي غريب محمد فايد – محمد طه البحيري – فاروق عاشور ضحايا التعذيب والتلفيق؟

والآن هل يمكننا أن نأمل أن يدفع مجرمو التلفيق والتعذيب ثمن آلام هؤلاء المظلومين. هل ستحرك الأجهزة المسئولة القضايا المترتبة على عمل هؤلاء المسئولين عن التلفيق والتعذيب؟(*).

وهل يدفع هؤلاء ثمن توريط رئيس الجمهورية بنفسه في التصريح بتصريحات خاصة بهذه القضية ثبت فيما بعد أنها ملفقة؟!

(*) حصل كل من مجدي غريب ومحمد طه البحيري وفاروق عاشور على تعويضات مدنية عن التعذيب وذلك بناءًا على قرار من المحكمة بعد أن رفعوا دعاوى تعويضات مدنية، ولكن الشق الجنائي في الدعوة وهو المرتبط بمحاكمة ضباط التعذيب المسئولين عن مأساة مجدي غريب ومحمد طه البحيري وفاروق عاشور ما زال حبيس الأدراج حيث أن القانون ينص على أن النائب العام وليس الضحايا هو المسئول عن تحريك تلك الدعوى الجنائية.

والآن سنحاول أن نبدأ القصة من أولها وذلك بالاستماع إلى الضحايا.. ومطالعة تقرير مباحث أمن الدولة الملفق. وأقوال المتهمين في النيابة. ومتابعة خطوط القضية يومًا بيوم.

إن هذه الصفحات مجرد خطوة متواضعة لتخفيف بعض آلام هؤلاء الضحايا – وإلقاء الضوء على أساليب مدرسة التلفيق والتعذيب الذين جمعتني رحلة السجن والتعذيب بهم خلف قضبان سجون زكي بدر.

أسباب التلفيق وظروفه

في يوم الثلاثاء الموافق ٥ مايو ١٩٨٧ الساعة العاشرة والنصف مساءًا – أطلقت عيارات نارية على وزير الداخلية الأسبق اللواء حسن أبو باشا – وذلك في ضاحية العجوزة – إحدى ضواحي القاهرة – مما أدى إلى أصابته بإصابات بالغة وخاصة في منطقة الساقين ومن المعروف أن السيد حسن أبو باشا كان يشغل منصب مدير مباحث أمن الدولة في أيام أحداث الصدام بين الجماعات الإسلامية ونظام السادات ١٩٨١ والتي أدت إلى اغتيال السادات واحتلال مدينة أسيوط – وقد وجهت دوائر الجماعات الإسلامية الاتهام إلى حسن أبو باشا بأنه أشرف على تعذيب عناصر الجماعات الإسلامية عقب اعتقال عدد كبير منهم في ١٩٨١ وما بعده – كما وجهت له تهمة إلقاء المصحف الشريف على الأرض وأنه داس على المصحف بقدمه مما أوغر صدور كثير من أوساط المسلمين المصريين لانتهاك حرمة كتاب الله تعالى.

وعقب تلك المحاولة قامت أجهزة الشرطة بعملية اعتقال عشوائية واسعة طالت معظم العناصر التي تتعاطف مع فكرة الجهاد الإسلامي – وذلك على أساس أن هناك ثأرًا بين تلك العناصر وبين أبو باشا شخصيًا حيث أن معظم هذه العناصر وأسرهم قد طالتهم أساليب التعذيب والمضايقات المختلفة... وبدأت أجهزة الأمن عقب محاولة الاغتيال في استخدام أسلوبها التقليدي في التحقيق وهو سلاح التعذيب بكافة الوسائل. وكان الضحايا الثلاثة من ضمن هؤلاء الذين تعرضوا للتعذيب – والتحقيق فلماذا اختارتهم أجهزة الأمن لتلفيق التهمة لهم؟ نحن أمام عدة احتمالات.

- إما أن هناك قرائن وأدلة تشير ولو بطرف غير مباشر لهؤلاء الثلاثة على أنهم شاركوا في العملية – وأما أن أحدهم انهار من التعذيب واعترف على نفسه كذبًا لينقذ نفسه من التعذيب على أساس أن الإعدام أو السجن أرحم من التعذيب.
- وإما أن المباحث قد وصلتها أوامر من السيد زكي بدر بضرورة عدم ترك القضية مفتوحة ولو بتلفيق التهمة لأي مجموعة والسلام وهو أسلوب معروف عن زكي بدر إذن فلنبحث في الظروف والملابسات التي أدت إلى تلفيق القضية لهؤلاء الثلاثة.

وبمناقشة الأطراف المختلفة وقراءة التحقيقات نستطيع أن نصل إلى حقيقة الظروف والملابسات التي أدت إلى اختيار هؤلاء الثلاثة بالذات.

عقب محاولة الاغتيال – رفعت أجهزة الشرطة – عددًا من البصمات على إحدى زجاجات البيبسي كولا – ثم قارنتها ببصمات جميع هؤلاء المنتمين إلى فكرة الجهاد الإسلامي إلا أن النتيجة كانت سلبية تمامًا.

ثم استدعت الشرطة عددًا من الشهود الذين حضروا الحادثة فلم يتعرفوا على أحد على الإطلاق.

وبدا أن المباحث وصلت إلى طريق مسدود.. ومع وجود وزير مثل السيد زكي بدر يريد إغلاق ملف القضية بسرعة حفاظًا على منصبه الوزاري لم يجد جهاز المباحث بدًا من تلفيق القضية – وبدأ البحث عن الضحايا.

وكانت هناك مجموعة من الظروف تحكم عمل جهاز المباحث فمن ناحية هناك وزير لا يعرف قانوناً ولا يحترم قيمًا ومعروف بقسوته وانعدام ضميره – وهو يطاردهم بتهمة الإهمال والفشل وضرورة الكشف عن الجناة أو تلفيق القضية لأي مجموعة – وهناك من ناحية أخرى رأي عام مصري وعالمي يتابع الموقف وهناك صحفاً للمعارضة – وهناك عدد كبير من المحامين والصحفيين الشرفاء يجعل عملية التلفيق صعبة – إذن لا بد من اختيار الضحايا بطريقة فيها شئ من الحبكة المسرحية وكان هناك شرطان على الأقل لا بد من توافرهما.

أولاً يجب أن يكون الضحايا من بين ضحايا التعذيب والسجن اللذين كان أبو باشا مسئولاً عنهما. ليس هذا فحسب بل يجب أن يكون هؤلاء من أكثر الذين تعرضوا لأذى الوزير السابق. والشرط الثاني هو أن يتم إكراه هؤلاء الضحايا على الاعتراف في النيابة بأي طريقة.

الاختيار يقع على مجدي غريب فايد

وبعد البحث ودراسة الملفات وقع الاختيار على مجدي غريب فايد – لماذا مجدي غريب فايد؟

إن الشرط الأول ينطبق على مجدي غريب تمامًا. فهو شخصيًا قد تعرض لتعذيب وحشي على يد رجال أبو باشا في سجن القلعة. ثم أنه سُجن لمدة تزيد على ثلاث سنوات في عهد اللواء حسن أبو باشا في الفترة من ١٣-١٠-١٩٨١ إلى ١٩٨٤/١٠/٢٣. هذا من ناحية الشخصية – ومن الناحية العقائدية فقد اتهم في قضية الانتماء إلى تنظيم الجهاد رقم ٤٦٢ لسنة ١٩٨١ حصر أمن دولة عليا – وهو من الناحية العائلية يعد من أكثر الذين نالتهم يد الأذى والاضطهاد والتعذيب.

فمن ناحية فإن المرحوم محمد عبد السلام فرج هو زوج شقيقته – كما أن شقيقه يحيى غريب محمد فايد قد صدر عليه الحكم بالسجن عشر سنوات في قضية الجهاد وما زال يقضي الحكم خلف أسوار سجن ليمان طره. وشقيقه الثاني هو مصطفي غريب محمد فايد وكان مطلوب اعتقاله إلا أنه

استطاع الهرب إلى خارج البلاد. إذن فالضحية ملائمة فهو من الناحية الشخصية والعقائدية والعائلية مرشح لأن يقوم بعمل كهذا. وبالتالي فيمكن تبرير الدافع على الاغتيال إذًا فليتم تقديم الضحية والضغط عليها بالتعذيب لإجبارها على الاعتراف.

ولكن ما زالت الحبكة المسرحية ناقصة – فالذين أطلقوا الرصاص كانوا ثلاثة يركبون سيارة نصف نقل – إذن فما زال هناك شخصان آخران أحدهما لا بد أن يجيد قيادة السيارات.

- كانت يد البطش تتربص بالمتهم الثاني البريء محمد طه البحيري – لمجرد أن محمد يسكن في الشقة التي تعلو شقة مجدي غريب في نفس العمارة وهو يعمل سائقًا على إحدى سيارات الأجرة.

وكان لا بد من البحث عن الضحية الثالثة – ووجدوا ضالتهم في المتهم البريء الثالث فاروق عاشور لمجرد أن هناك تشابهًا في بصمة إحدى أصابع يده مع البصمة المرفوعة من على زجاجه البيبسي!!

رحلة العذاب

في اليوم الذي تمت فيه حادثة أبو باشا يوم ٥-٥- ١٩٨٧ كان مجدي غريب يعاني من آلام شديدة في الكليــة اليمنــى وتردد منذ يوم ٢-٥-١٩٨٧ على مستشفى بولاق الــدكرور لعلاج هذه الآلام - وفي اليوم الموعود كان مجدي غريب قد ذهب إلى مستشفى أم المصريين عقب الإفطار حيــث تلقــى علاجًا عبارة عــن بعــض الفحــوص والتحاليــل الطبيــة بالمستشفى وبعض العلاج والحقن وعاد إلى بيته في حــوالي الساعة التاسعة والنصف حيث اشتد به الألم - فقامــت أمــه باستدعاء إحدى الممرضات لإعطائه حقنة مســكنة للألــم - وهذه الممرضة هي السيدة لويزا زوجة السيد نعيم جيد سعد وهي أسرة مسيحية تسكن في نفس العمارة التي يقطــن بهــا مجدي غريب - كما جاءت أيضًا ممرضة أخرى هي السيدة «عايدة» زوجة السيد بشري ساويرس وهي أسرة مســيحية أخرى تسكن بالدور الثاني بنفس العمارة - والعمارة مملوكة لمجدي غريب وأسرته - أي أن مجدي غريــب قــد تلقــى علاجًا في نفس اللحظة التي اغتيل فيها حسن أبو باشا علــى يد ممرضتين مسيحيتين تسكنان وزوجاهما في نفس العمارة.

وعقب تلقي مجدي غريب هذا العلاج استغرق في نوم عميق خالي الذهن مما يديره له جهابذة التلفيق وفي الصباح قرأ الصحف وتعرف بالخبر وأدرك بحسه السياسي أن عملية اعتقالات ستجري للاتجاه الإسلامي – فآثر أن يغيب عن بيته عدة أيام خاصة وأن عمليات الاعتقال بدأت في منطقة صفط اللبن المجاورة لمسكنه في بولاق الدكرور غاب مجدي غريب عن منزله يومين. وفي هذين اليومين جاءت قوات المباحث لاعتقاله عدة مرات «حوالي ١٢ مرة». إلا أنه نظرًا لاشتداد المرض به عاد إلى منزله حيث اعتقلته قوات البوليس وكان ذلك في يوم ٨-٥-١٩٨٧ حيث تم ترحيله إلى مباحث أمن الدولة فرع جابر بن حيان بالدقي حيث تم ترحيله إلى سجن استقبال طره – حيث تم حبسه يوم الجمعة إلى فجر السبت التالي.

"باب إلى الجحيم"

في يوم السبت – وبالتحديد عقب صلاة الفجــر – كــان مجدي غريب قد استيقظ كعادته – فأدى صلاة الفجــر – إلا أن أذنه قد التقطت أصوات أحذية المخبرين الغليظة من خلف باب الزنزانة ٢٤/١ عنبر أ– دخل المخبرون كزبانية الجحيم فانهالوا ضربًا على مجدي غريــب – ضــربات متتاليــات وركلات متتابعة نزلت على جسد مجدي غريــب – قــاموا بتقييد يديه إلى خلف ظهره – ووضعوا عصابة على عينيــه وفي لمح البصر كانوا قد اقتادوه إلى الجحيم – إلى أين إلـــى معهد أمناء الشرطة – حيث فتحوا له بابًا إلى الجحيم.

أربعة أيام بالشورت فقط

وصل مجدي غريب إلى معهد أمناء الشرطة صباح السبت ١٩٨٧/٥/٩ وبدأت حفلة الاستقبال بدون مقدمات – قاموا بنزع ملابسه جميعًا – ماعدا الشورت الذي يستر عورته – وبدون أن يكلموه كلمة واحدة بدأت حفلات العذاب المستمر على جميع أجزاء جسم مجدي – أكثر من عشرة أشخاص يضربونه بالعصي والكرابيج والخراطيم – وتورم جسم مجدي من قدميه إلى رأسه – لم ينقطع الضرب طوال الأربعة أيام ليلاً ونهارًا بالطبع لم ينقطع الصراخ ولا من مجيب – وأخيرًا أغمي على مجدي وسقط مغشيًا عليه – لم يعد يشعر بالضربات التي انهالت على جسمه لأنه قد فقد وعيه – تأكدوا أن مجدي قد فقد وعيه – فتركوه.

وانتظروا

المقابلة الأولى

وبعد مغرب ذلك اليوم – جاء الجنود – وأيقظوني بركلاتهم – ثم قاموا بعملية تأكد من القيد الحديدي في يدي خلف ظهري والعصابة على عيني – كنت أشعر بآلام فظيعة في جسدي وخاصة في منطقة الكلية حيث أن البرودة الشديدة قد أهاجت آلام الكلية – كان القيد الحديدي يؤلمني جدًا – وخاصة أن وضع يدي لم يتغير منذ أربعة أيام وكذلك حرقان فظيع في عيني – شعرت أنني أصعد عددًا من السلام تقدر بحوالي دورين – ومررت من أمام عدة غرف حتى وصلت إلى إحدى الغرف وفتح الجنود الباب – ووجدت نفسي في مدخل الغرفة وبدا جو الغرفة مكيفًا – فأحسست بالدفء وسمعت صوت المكيف ولأول مرة منذ أربعة أيام أشعر بالدفء – كنت أتلو بيني وبين نفسي آيات مما أحفظ من القرآن الكريم وكنت أدعو الله تعالى أن ينقذني من أيدي هؤلاء الذين قدموا من عالم الشياطين قدرت عددهم بأكثر من عشرة رجال. واجهوني بسيل من الشتائم. ركزت ذهني في مواجهتهم لعلي أهز ضمائرهم – ولكن هيهات يسمع من مات ضميره – وجدتني أصرخ في وجوههم حرام عليكم – الله ينتقم منكم أليس لكم أولاد واجهوني بضحكات ماجنة – قال أحدهم يا حبيبي!!.

وصرخ آخر كيف قتلت أبو باشا – وقلت لهم أقسم بـــالله العظيم أنني لم أقتله. قال أحدهم ممنوع ذكر الله هنا – هـــذا مكان لا يدخله الله – فقلت حاشا لله – قالوا جرب – اصرخ – فإذا استجاب لك الله آمنا به. اسمع يا ابني نحن لم نســـألك لماذا قتلت أبو باشا – ولكننا نسألك كيف قتلت أبو باشا لأننا نعرف لماذا قتلته.

ولكنني لم أقتله.

- نحن هنا الذين نقرر إذا كنت قتلته أم لا.
- أقسم بالله أنني لم أقتله.

صرخ أحدهم.

- لا تذكر اسم الله مرة أخرى هنا.
- سيدي استمع لي خمس دقائق أرجوك.
- تكلم أحدهم بصوت هادئ – ماشي تكلم.
- إنني في يوم اغتيال أبو باشا كنت مريضًا بالتهـــاب كلوي – وقـــد تلقيـــت علاجًـــا فـــي مستشـــفى أم المصريين وعدت إلى البيت حيث قامت ممرضتان مسيحيتان تسكنان في نفس العمارة بتمريضي همـــا كل من السيدة لويزا – والســـيدة عايـــدة ويمكـــن سؤالهم.

- اجلس يا مجدي – ونادى أحدهم يا أمن فجاء أحد الجنود على الفور – أجلسه وأحضر له شاي – وفك قيوده الحديدية – فعل الجندي ما أمره به المحقق.
- جلست والتقطت أنفاسي بدأ أحدهم يتكلم قائلاً يا مجدي أنت مسلم أليس كذلك – قلت الحمد لله – وطبعا لا يرضيك أذى الناس أليس كذلك.
- قلت نعم.
- قال إذن فاستمع لي جيدًا، ولا تكذب على.
- قلت إن شاء الله.
- لقد قُتل حسن أبو باشا – هل علمت بذلك.
- نعم من الصحف.
- حسنًا هل تحب حسن أبو باشا.
- بالطبع أكرهه.
- إذن أنت لديك الدافع لقتله فلقد آذاك أنت وأهلك.
- ولكني لم أقتله.
- لم أقل لك أنك قتلته ولكني أقول لك أن لديك الدافع على قتله.

- لا بل الدافع على كراهيته.
- يا أمن.. خذه الآن.. وألبسه ملابسه.

ألبسني الجنود ملابسي – وأتوني برغيف واحد – وطلبت أن أصلي – فتركوني أتوضأ وأصلي وبعدها أعادوا تقييدي.. وأحكموا العصابة على عيني.

حاولت أن أنام رغم آلام جسمي الملتهب والمتورم جاء الجنود مرة أخرى وأيقظوني – لم أعد أعرف للأيام نهارًا أو ليلاً أو تاريخًا – رفعوا العصابة عن عيني – وجدت أمامي عددًا من الأشخاص يحملقون في – فحصوني جيدا – ثم أعادوا العصابة على عيني – وتركوني.

بعد فترة من الوقت وجدت الجنود يقتادوني إلى غرفة التحقيق.

- أهلا يا أخ مجدي – هل أنت بخير؟.
- الحمد لله.
- الباشا جاء بنفسه ليطمئن عليك ويعقد معك صفقه – مد يدك إليه.
- ماذا تريد؟.

- اسمع يا مجدي – قتل أبو باشا وإطلاق الرصاص في الشوارع معناه أن مصر ليس فيها أمن وهذا معناه فقدان الثقة في مصر وهذا يؤثر على السياحة والاستثمار.
- وما ذنبي؟.
- اسمع ولا تتكلم – ولكي نعيد هذه الثقة لا بد من ضبط الجناة – كما أن عدم ضبط الجناة معناه أننا جهاز خربان – وهذا يضر بالسادة الضباط ووزيري مجنون كما تعلم – ولا بد من تقفيل القضية.
- وما شأني بكل هذا؟.
- اسمع حتى النهاية – لقد تأكدنا أنك لست القاتل – فقد حققنا مع الممرضتين – وكذلك استدعينا الشهود فلم يتعرفوا عليك.
- الحمد لله.
- ومع ذلك أنت القاتل – قالها بصوت أجش.
- أعوذ بالله – كيف.

- لا بد من قاتل – وأنت تكره أبو باشا وبالتالي فأنت القاتل.
- هل تمزح معي يا باشا.
- انفجر بركان مفاجئ – وانهالت الضربات علي من كل اتجاه.
- عاد الباشا يتكلم – أمامك طريقان – سكة السلامة وسكة الندامة – يا ابني لا تصدق أن في البلد قانون أو دستور أو مؤسسات نحن هنا الكل في الكل نستطيع أن نقتل من نشاء – ونستطيع أن نسجن من نشاء الجميع تحت أمرنا وإشارتنا. إذن فاختار – نريد منك أن تعترف في النيابة وسوف نجهز لك سلاحًا كالمستخدم في الحادث وأسماء شركائك – وأعدك بشرفي أن أقوم بنفسي بتهريبك خارج مصر وإعطائك كل ما تشاء، أعدك بشرفي – أما السكة الثانية فأنت تعرفها – سنقوم بتعذيبك حتى تتمنى الموت وأنت تعرف أساليب التعذيب – ليس هذا فحسب سنأتي بزوجتك وأمك واخوتك – وطبعا أنت عارف الباقي. فكر ثم قرر.

- اقتادني الجنود مرة أخرى واحضروا لـــي طعامًـــا كان عبارة عن خبز ولحم.
- تركوني على هذه الحال يومين – ثم عـــادوا إلـــي فاقتادوني إلى غرفة التحقيق المشئومة.
- هل فكرت يا أخ مجدي؟.
- لن أكذب – ولن أتحمل جريمة لم أقم بها.
- أنت ابن.... ولن ينفع معك الذوق.

وانفتح باب الجحيم

وانفتح باب الجحيم ولم يغلق أكثر من شهر متواصل يومًا بيوم – وساعة بساعة – ودقيقة بدقيقة وثانية بثانية تحكي كل منها مأساة المسلم في مصر في القرن العشرين – تحكي كل منها بالدم والدموع والجوع والعطش ظلم الإنسان لأخيه الإنسان – تحكي كل منها بسطور من نار كيف أن مصرنا الحبيبة ما زال بها من لا يعرف من الناس ذمة ولا يرعى للإنسان كرامة ولا حتى حقوق الحيوان.

بدءوا بتجريدي من ملابسي كاملة – وتركوني كما ولدتني أمي – حتى الشورت نزعوه عني – وبدأت الوجبات اليومية ثلاثة مجموعات كل مجموعة مكونة من ١٥ رجلاً. كانت كل مجموعة تبدأ عملها حتى تتعب فتسلمني إلى مجموعة أخرى وهكذا.

كانت وجبة التعذيب عبارة عن تعليقي مقيد اليدين من الخلف كالذبيحة تمامًا – وتقوم إحدى المجموعات بالضرب على جسمي ورأسي بالكرابيج والعصي والخراطيم – حتى انفصلت فروة رأسي تمامًا وهي إلى الآن بحالتها – وبرغم انفصال فروة رأسي كانوا يضربونني عليها ثانية مما يسبب لي آلامًا لا يعلمها إلا الله.. ومجموعة أخرى تقوم باستخدام الكهرباء في أجزاء متفرقة من جسمي وخاصة في أعضائي التناسلية وداخل فمي مما كان يحدث آلا لا يمكن وصفها نسأل الله تعالى أن يقي كل مسلم منها.. والمجموعة الثالثة تقوم باستخدام عصي وإدخالها في فتحة الشرج تحول جسدي كله إلى قطعة من الدم والقيح والصديد.

من فترة لأخرى – يأتي أحد المحققين أو مجموعة منهم ليعيد على العرض بالذهاب إلى النيابة والاعتراف – وفي أثناء ذلك كانوا يهددوني بإحضار الزوجة والأم – أو تهديدي بأن يلوطوا في بواسطة شخص يسمونه الزنجي – كانوا يستخدمون سجائرهم في إحراق أجزاء من جسدي – وكانوا يطلبون مني أن أصف جسم زوجتي – ولكن هيهات – كانوا يفقدون أحيانًا أعصابهم فيعلقونني من قدم واحدة – أو

يقيدونني إلى ما يسمى العروسة ثم ينهـالون ضـربًا علـي بالكرابيج أو يتركوني لنهش الكلاب البوليسـية – فـإذا مـا أرادوا أن يتركوني – ربطوا قربة بها ثلج علـى الجـانبين وتركوني تحت المروحة وذلك فـي محاولـة لتقليـب آلام الكليتين علي – كان الألم يشتد علي – وكان الصديد ينـزف من فروة رأسي – وكان الله معي.

***

محمد طه البحيري

الظلم يتربص بالبسطاء

محمد طه البحيري – شاب بسيط – كان قد بلغ من عمره ٢٤ سنة – لم يعرف خلالها السجن أو السجان ولم يعرف خلالها ضابطًا أو جنديًا – لم يكن يعرف الفرق بين قسم بولاق الدكرور – ومديرية الأمن لم يكن يعرف ما معنى أمن الدولة – أو ظلم الدولة كان خالي الذهن من كل شيء – كانت كل دنياه عبارة عن سيارة يعمل عليها كسائق – وجلوسه على أحد المقاهي الشعبية مع شلة الأصدقاء يتبادل معهم الضحكات – ليعود إلى منزله الذي يقيم به مع أمه وأخته وأخويه محسن و ماجد كانت الظروف دائمًا قاسية مع محمد البحيري فما أن بلغ الثالثة عشرة حتى وجد أباه أمامه جثة هامدة – كان يجلس معه في سيارته الأجرة التي يعمل عليها وفجأة وجد الموت يختطف أباه.

وبدلاً من أن يحلم البحيري بأن يُكمل تعليمه ويخط طريق حياته في كنف الأب – وجد نفسه في وقت مبكر يحمل عبئًا فوق طاقته – أم لا تعرف من دنياها إلا منزلها – مطمئنة إلى كنف الزوج ولكن الزوج قد رحل – فأين الكنف والملاذ والأمان – ها هم الأطفال محمد الأكبر ١٣ سنة – محسن ١٢ سنة – ماجد مازال طفلاً ضعيفًا – وبنت وحيدة ١٤ سنة.

وكان على محمد أن يحمل العبء ويواجه الحياة – كان عليه أن يطعم الأفواه – وأن يقوم مقام الأب.

نزل محمد إلى معترك الحياة – كان يعمل حتى تدمي يداه في حمل الزلط والرمل والطوب – ويعود إلى المنزل الذي كان دائمًا ما يخلو من الخبز كانت الأم تبكي على هذا الصبي المدمي اليدين والمتورم القدمين – تجهز له الماء والملح وتدلك أقدامه – وهل تملك إلا أن تدلك أقدامه وتمر الأيام بقسوتها ومرارتها مع الجوع والحرمان والصبي الدامي اليدين المتورم القدمين. حتى يبلغ محمد البحيري سنًا يسمح له باستخراج رخصة قيادة فيسارع باستخراجها ليعمل سائقًا مثل أبيه الراحل – وتمر الأيام يعمل محمد ليلاً ونهارًا ليتكفل بمصاريف أمه وأخوته – كان يحلم ويحلم وكان الحلم يقترب من التحقيق.

في يوم من أيام محمد البحيري – في يوم مثل كل أيامـــه كان البحيري قد اتخذ طريقه إلى منزله – مشغول البـــال – يفكر في أحواله وأحوال أسرته – كان يشعر بالفرح والهم – بالفرح على أن أخوته قد بدءوا في طريق أمـــن – فهـــاهي الأخت الكبرى قد حصلت على بكالوريوس تجـــارة – وقـــد تقدم لها مهندس شاب يطلب يدها وها هو أخوه محسن يؤدي امتحانات السنة الثالثة بكلية التجارة. والأخ الأصغر ما جـــد يقترب من إنهاء المرحلة الإعدادية – والأم كما هي مازالت لا تملك إلا الدعاء – وتدليك أقدام بحيري بالماء والملح كان عبء السنين فوق كاهل محمد قد بدأ يخف – ويتحول إلـــى ذكرى – آه من الأيام في لحظة واحدة تذكر محمـــد أيامـــه القاسية – أيام الجوع – وبيع الأثـــاث – وبكـــاء الأم علـــى الصبي الذي تسيل الدماء من يديه – الحمد لله هانت يا محمد – صحيح أن هناك بانتظارك جهاز أختك ومـــازال أمامـــك رحلة الأخوين ولكن هذا شأن الرجـــال – وقـــدر الرجـــال فلتصعد يا محمد السلالم في منزلك – ولا تـــنس أن تحمـــل لأمك كيسًا من اللب ليسعدها كعادتها ولا بد مـــن أن تحمـــل هدية للأخت وهدية للأخ محسن – ولعبة للشقي المتمرد ماجد – تمتم محمد لنفسه – ما أعظـــم هـــذه الأم – إنهـــا تفـــرح بالأشياء البسيطة – لأنها لا تعرف إلا الأشياء البسيطة.

تقدم يا محمد فأنت لا تعرف ماذا كان بانتظارك.

كان الظلم بانتظار البحيري – كان الجنود والضباط يتربصون بمحمد البحيري – اقتادوه إلى فرع أمن الدولة بالجيزة – في يوم ١٩٨٧/٥/٢٠. طلبوا من البحيري أن يحكي لهم كل شيء عن مجدي غريب وعن مصطفى غريب – وقالوا له عد الآن إلى منزلك وتعالى غدًا وفي الغد ذهب البحيري – ولكنه لم يعد.

أخذوا سيارة مجدي غريب ماركة فيات ١٢٤ أركبوه السيارة وذهبوا إلى مكان بعيد حيث عرضوه وعرضوها على بعض الأشخاص فقالوا ليس هو – وليست هي السيارة.

البحيري
في معهد أمناء الشرطة

في يوم ١٩٨٧/٥/٢١ اقتادوا البحيري إلى معهد أمناء الشرطة – حيث يتم التحقيق والتعذيب – استقبلوا البحيري بالركلات والصفعات – تركوه عاريًا من ملابسه إلا «الشورت» ثلاثة أيام – معصوب العينين – مقيد اليدين إلى الخلف بلا طعام أو شراب أو نوم. ضرب متواصل وسيل من الشتائم والبحيري يسأل لماذا تضربونني دون أن يرد عليه أحد – أو يجيبه مجيب كانت الإجابات تأتي على هيئة صفعات، وركلات على الوجه أو البطن والظهر.. وبعد ثلاثة أيام وجد بحيري أخيرًا من يكلمه.

الدخول إلى غرفة التحقيق

اقتاد الجنود البحيري إلى غرفة التحقيق – أخيـرًا وجـد البحيري من يكلمه – ولكن البحيري لم يجد كلامًا – بل وجد مرحلة جديدة من التعذيب. وجد البحيري نفسه فـي وسـط ذئاب الجميع ينهش في لحمه – كلاب بوليسـية – ضـرب بالكرابيج – تعليق من اليدين إلى الخلف في أحـد الأبـواب تهديد باللواط الكهرباء تصعق أجزاء متفرقة وحساسـة مـن جسده والبحيري لا يعرف لماذا كل هذا.

وأخيرًا تكلموا مع البحيري

أمر المحقق الجنود بإنزال البحيري – أخيرًا تكلم المحقق.

أنت يا بحيري – ولد كويس – وليس لك علاقة بالاخوة.

وأنت تعرف طبعًا أن مصطفى غريب ومجدي غريب قد قاما بإطلاق الرصاص على حسن أبو باشا.

- من هو حسن أبو باشا هذا؟.
- أنت هتستهبل – المطلوب منك الآن أن تحكي كيف حدث هذا – وكم دفعوا لك من أجل أن تقود لهم السيارة المستخدمة في الحادث – وكيف سرقتها أحكي يا بحيري كل شئ – فأنت غير متورط – أنت مجرد أداة – لقد خدعوك.

البحيري – لم يفهم شيئًا من هذا الكلام – سيارة مسروقة – أبو باشا إطلاق رصاص من هو أبو باشا هذا – وما هي وظيفته – ولماذا أطلقوا عليه الرصاص – سكت البحيري ولم يرد لم يعرف كيف يرد – ولا بماذا يرد.

- تكلم يا بحيري أحسن لك. بشرفي سأنقذك تكلم من أين سرقت السيارة ومن أين حصلوا على السلاح تكلم.
- والله العظيم – لا أعرف شيئًا من هذا.
- يا ابني هؤلاء لن ينفعوك – نحن أنفع لك.
- ولكني لا أعلم من هذه الأمور شيئًا.
- إذن فأنت لا تعرف مصلحتك يا بني اشتري جلدك.
- ما أن خرجت الكلمة من فم المحقق حتى وجد البحيري أن عشرات العصي والكرابيج قد انهالت عليه – جردوه من الشورت الذي يغطي عورته – علقوه على الباب – وانهالت الضربات – وتوالت الصرخات – ولا من مجيب – مشطوا جسده بالكهرباء. تحول جسد البحيري إلى كتلة من الألم – أنزلوا البحيري وتركوه عاريًا.

مر عدد من الساعات لا يعرفها البحيري – وأخذ يئن من الألم والخوف – ما كل هذا – ماذا صنعت يداك يا بحيري؟ ترى ما هي أحوال الأم والاخوة الآن – خليك في حالك يا بحيري – وهل هذا وقت التفكير في الأم والاخوة؟.

شيء من العلاج والراحة والنظافة لأشلاء مجدي غريب ومحمد البحيري.

وجاءوا بالدكتور مقدم محمد المنياوي وهو طبيب بمصلحة السجون تحت إشراف طبيب آخر برتبة أعلى – تلقى مجدي كمية كبيرة من الحقن والكبسولات والمضادات الحيوية على هيئة رش (Spray) وكذلك تلقى البحيري علاجًا مماثلاً – ولم يشفع العلاج في رفع العصابة عن عيون مجدي – أو البحيري – أو فك قيود أيديهم التي تحول دون النوم في الوضع الطبيعي.

الماء - الاستحمام

وعلى حين فجأة – وبطريقة لم يكن يحلم بها مجـــدي أو البحيري – جاء أحد الحراس وقال لكل منهما هل تريـــد أن تستحم – وكان حلمًا وتحقق.

كان على وجه وجسد كل منهمـــا طبقـــات مـــن الطـــين والصديد والدماء – وكانت رائحة فظيعة تنبعث من جسديهما ووجد مجدي والبحيري نفسيهما في مكان به ماء لا بـــل دش وبانيو – يا إلهي ما أعظمها من نعمة – نعمة الماء والنظافة – وتحولت مياه البانيو إلى خليط من الماء والتراب والصديد والدماء ووجدت الأجساد المتسخة طريقها إلى النظافة بعـــد أكثر من شهر حرمت فيها من الماء – ووجد مجدي غريـــب ومحمد البحيري لفافة من الملابس النظيفة بانتظارهما.

الحيلة تنطلي على الحارس

أحس مجدي غريب أن هناك شيئًا ما.. وقرر أن يحتفظ بملابسة الممتزجة بدمائه – قال للحارس أترك لي الملابس لأضعها كوسادة تحت رأسي وبعد حوالي نصف يوم – أيقظ الحراس كلاً من مجدي غريب ومحمد البحيري وقالوا لهما سوف تخرجان إلى مأمورية. استطاع مجدي أن يخفي الملابس الملوثة ويخرج بها من معهد أمناء الشرطة – كان قد أحس بحاسته أنه ذاهب إلى النيابة وفي يوم ١٩٨٧/٦/١٦ الساعة الثانية ظهرًا وجد مجدي غريب العصابة ترتفع عن عينيه – ووجد نفسه أمام محكمة الجيزة الابتدائية – كانت المرة الأولى التي ترى فيها عيناه النور وترتفع العصابة عنهما منذ أكثر من شهر – أما البحيري فقد كان حظه أفضل حيث رفعت العصابة عن عينيه أمام الباب الرئيسي لجامعة القاهرة – أحس البحيري بالفرح – فها هو يركب سيارة – ويرى الناس في الشوارع – إنه ما يزال يعيش ويرى.

صعد مجدي غريب إلى الدور السابع – وكــذلك صــعد البحيري – وجلس كل منهما في غرفة منفصلة وفي الساعة الرابعة والنصف مساءً – قامــت النيابــة بعمــل عــرض للمتهمين أمام الشهود.

لحظات عصيبة

كانوا خمسة شهود – أحدهم في حوالي الخامسة والستين من عمره – والثاني في حوالي الخامسة والثلاثين – وثلاثة من الشباب في العقد الثالث من العمر حوالي ٢٥ سنة.

وفي عملية العرض قال الشباب الثلاثة أنهم يستطيعون تمييز القاتل تمامًا.. وإنه ليس بين هؤلاء.. وتكررت عملية العرض عدة مرات – وأصر الشباب الثلاثة على موقفهم – أما الرجل المسن فقد بدا مضطربًا مترددًا كما أثبتت النيابة ذلك – فتارة يشير إلى مجدي غريب وتارة إلى البحيري وتارة إلى آخرين. وكذلك فعل الشاهد الثاني – ووجد مجدي غريب نفسه – يقول للرجل المضطرب – اتق الله هناك الآخرة لديك أولاد وعاد الرجل ليقول – لا ليس هم، ثم ردد المباحث ستقتلني. وقد أثبت وكيل النيابة أن الشاهد المسن – والشاهد الثاني كانا قد رأيا المتهمين قبل ذلك في مباحث أمن الدولة.

وفي حوالي الساعة السادسة مساءًا – بدأ التحقيق مع كل من مجدي غريب ومحمد البحيري أمام نيابة الجيزة الكلية.

قام بالتحقيق مع مجدي غريب المستشار محمد الشوربجي – وقد أكد المستشار أنه لن يضغط عليه – وأنـــه يريـــده أن يقول له الحقيقة كاملة ولا يخشى شيئًا – وقد طلـــب مجـــدي غريب حضور كل من المحامين د. عبـــد الحلـــيم منـــدور والأستاذ منتصر الزيات والأستاذ يوسف صقر – والأســـتاذ محمود عبد الشافي. وقد أثبت رئيس النيابة هذا الطلـــب. إلا أنه عاد وأكد أن التحقيق سيكون محايدًا – وأن محاميك هـــو الله – وأنك لن تتعرض لضغوط من أي نوع ويمكنك التوقف عن التحقيق في أي لحظة وتصر على وجود المحامين. وقد أوفى رئيس النيابة بعهده.

وبدأ رئيس النيابة بتوجيه تهم إطلاق الرصـــاص علـــى اللواء حسن أبو باشا – الانتماء إلى تنظيم سري بهدف قلـــب نظام الحكم – حيازة أسلحة بهدف اســـتخدامها فـــي القتـــل. وأنكر مجدي كل التهم الموجهة إليه – وطلب أن يطلع على الأحراز الخاصة بالسلاح – إلا أنه لم يكن هناك أحراز وقد جاء في أقوال مجدي أن الشاهدين الأولين كانا قد رأياه فـــي مقر المباحث – وأن المباحث قد قالت له أن القضية ســـتثبت عليه حيث أن الشهود سيتعرفون عليه تحت ضغط المباحث.

كما قام رئيس النيابة بتحريز وإثبات الملابس الملوثة بالدماء وأثبت آثار التعذيب.

أما محمد البحيري – فقد قام رئيس النيابة بتوجيه ٥ تهم إليه وهي محاولة اغتيال اللواء حسن أبو باشا وزير الداخلية الأسبق – الانتماء إلى تنظيم سري يهدف إلى قلب نظام الحكم بالقوة – إحراز سلاح وذخيرة بدون ترخيص – سرقة وقيادة السيارة المستخدمة في الحادث ونفي البحيري كل هذه التهم – ويقول البحيري أنه شعر بالأمان أمام رئيس النيابة وأنه أعطانا طعامًا وشرابًا وأكوابًا من الشاي وأكد له أن هناك قانونًا ودستورًا.

المباحث تفقد أعصابها

عاد المتهمان إلى معهد أمناء الشرطة – وأدركا ذلك من أصوات الصراخ المنبعث من غرف التحقيق – تركوهما حوالي الساعة – وجاء إليهم أحد كبار الضباط المحققين قال لهما – إن النيابة بنت.... وأخذ يكيل الشتائم للنيابة والقضاء والقانون والدستور وأخذ يهدد ويتوعد – أن هناك أوامر بقتلهما ولن ينفع في هذه الحالة نيابة ولا قضاء. ثم مال على أذن مجدي غريب قائلاً: أنت مجرم محترف ولن تقلت – ستعودا إلى النيابة ولا بد أن تعترفا ولكن المتهمين البريئين ازدادا إصرارًا على الصمود.

بعد فترة وجيزة تم ترحيل المتهمان إلى سجن استقبال طره.

مكرونة باللحم المفروم

ما أن وصل المتهمان إلى سجن استقبال طره حتى طلبا طعامًا كانا يشعران بجوع شديد.

أتى لهما أحد المخبرين بمكرونة فاسدة – إلا أنهما أكلاها بشهية عجيبة برغم رائحتها الواضحة الفساد.

تم إيداع محمد البحيري في زنزانة رقم ١/٣١ عنبر ب – ومجدي غريب في زنزانة ١/١٩ عنبر ب وقضى المتهمان الليلة نائمين على البلاط وفي اليوم الثاني ذهب المتهمان معصوبا العينين – مكتوفا اليدين إلى النيابة العامة أيضًا بالجيزة – ووجدا أن مساعد كبير أطباء الطب الشرعي موجودًا حيث وقع عليهما الكشف الطبي وأثبت آثار التعذيب مظهرًا عجبه الشديد بالآثار الفظيعة للتعذيب ومعربًا عن أنه لأول مرة يرى مثل هذه البشاعة في التعذيب. استغرق الكشف الطبي حوالي الساعة – ثم أكمل رئيس النيابة تحقيقاته. وتم عرض الملابس على الطبيب الشرعي فأثبت ما بها من آثار التعذيب.

وبعد انتهاء التحقيق في النيابة – وعلـم الضـباط بـأن الملابس الملوثة بالدماء قد تم إثباتها – وكرد فعل على هـذا قاموا بضرب المتهمين ضربًا شديدًا أمام البوابـة الرئيسـية لمحكمة الجيزة الكلية أمام مطلع السلالم.

وتم استجواب المتهمين عن كيفية تسريب الملابس الملوثة بالدماء مؤكدين في النهاية أنهم قادرين على تعـذيب وكيـل النيابة ذاته.

هذا وقد أثبت المتهمان ذلك في محضر النيابة في تـاريخ لاحق ١٩٨٧/٦/٢٠.

وفي هذا التاريخ ١٩٨٧/٦/٢٠ تم استكمال التحقيق فـي النيابة باستجواب محمد البحيري عن مكان وجـود مجـدي غريب في يوم إطلاق الرصاص على أبو باشا.

وفي يوم ١٩٨٧/٦/٢٥ – طلب النائب العام أن يحضـر كبير أطباء الطب الشرعي لتوقيـع الكشـف الطبـي علـى المتهمين فقام بفحص المتهمين وأثبت آثار التعذيب.

التقرير الطبي

إن هذا التقرير الطبي التاريخي – بما حواه من تفاصيل تثير الفزع لشاهد حي على مدى ما وصلت إليه وحشية بعض أشباه البشر – وإلى أي مستوى فظيع وصلت القسوة وانعدام الضمير وفقدان الإحساس بقيمة الإنسان في مصر وهو في الوقت نفسه جريمة كبرى – جريمة نظام وليست تصرفات فرد أو أفراد ، وإنها لدعوة إلى كل من يهمه أمر مصر ومستقبلها وكرامة أبنائها لمواجهة الجلادين وإسقاط أسلوب التعذيب.

الحياة في سجن الاستقبال

انتهت تحقيقات النيابة – وبدأنا نستقر في الحبس الانفرادي في سجن استقبال طره – وهو سجن تابع لأمن الدولة مباشرة – كانت الحياة اليومية تسير يومًا – بيوم – وساعة بساعة – ودقيقة بدقيقة – كان السجن مكتظًا بالمعتقلين – عنبر أ، وعنبر ب، أربعة أدوار من الزنازين الحبس الانفرادي. أو الحبس مع مجموعة من الاخوة – كانت روح الإيثار واضحة – ما أن يصل أحد المعتقلين سواء من خارج السجن أو من التحقيقات حتى يسارع الاخوة في إرسال الملابس إليه – الصابون – معجون الأسنان – تبادل البطاطين – تبادل الطعام كان القادمون من التحقيقات يحظون بقدر أكبر من الاهتمام الملابس والطعام على اعتبار حاجتهم الملحة إلى الملابس والطعام والصابون – كان العائد من التحقيق في معهد أمناء الشرطة يشعر بأنه ولد من جديد كان يأكل كثيرًا ليعوض جوع الأيام الطويلة – وكان يستحم في اليوم الواحد أكثر من مرة لعله يتخلص من أكوام التراب والصديد على جسمه – كان للصابون في هذا الوقت مذاق خاص لا يعرفه إلا الذين حرموا من الماء والصابون أيامًا طوالاً.

كانت الزنازين مغلقة تمامًا – وحتى الفتحة العلوية بالأبواب كانت مغطاة بلوح من الصاج – إلا أن الاخوة وجدوا أكثر من طريقة للتواصل وتناول أخبار التحقيقات أو تبادل الطعام والشراب والملابس أو تنسيق أنواع من العمل الجماعي والمواجهة الجماعية مع الإدارة كنا قد استطعنا أن نربط جميع الزنازين بعضها ببعض عن طريق حفر صغيرة في الحوائط – يحفرها الاخوة بأظافرهم في حوائط من الطوب الأحمر والأسمنت ومع الصبر والدأب أصبح السجن كله كتلة واحدة ولم تعد هناك زنزانة واحدة ليست مفتوحة عن طريق حفرة على جارتيها. ليس هذا فحسب. بل إن تبادل الحديث عن طريق القفز على الحوائط والجلوس في الشباك العلوي كان أحد الوسائل للترابط والتواصل بين الاخوة. واستخدم الاخوة أحبالاً مصنوعة من سلوك الكهرباء أو السجاجيد الممزقة إلى أشرطة صغيرة لتوصيل الطعام بين الزنازين سواء في الدور الواحد أو الطوابق المختلفة – وكان التفاهم والحديث بين عنبر أ، وعنبر ب يتم عن طريق الشبابيك ونظم الاخوة نشرات للأخبار – أخبار من خارج السجن وأخبار من داخل السجن. وقد ظهر صوت الأخ

محمد رشدي كقارئ للأخبار اليومية بعد صـــلاة المغــرب باعتباره أقوى الأصوات – كانت هناك الأناشيد الجماعية أو الفردية تنشدها الأصوات الجميلة في العنبر مثل الأخ عصام الجندي – والأخ محمود يوسف – وكـــان الاخـــوة جميعًـــا يرددونها كمجموعة معهم. وقد تميز كـــل أخ مـــن الاخـــوة بإجادته لنشيد معين – كان الأخ على ذر – ذلـــك الصـــوت الصعيدي المميز ينشد يوميًا ملحمة أســـيوط – وكـــان الأخ عصام الجندي ذو الصوت الملائكي ينشد أكثر من نشيد مثل نشيد.

القدس في القيد تبكي من فوارسها حكامنا ضيعونا حينما ظلموا وكذلك نشيد	**دمع المآذن يشكو للمصلين باعوا المآذن والقرآن والدين ------------------------**
أمضي في طريقك ومسارك وكذلك النشيد الطريف	**واصل بين ليلك ونهارك ------------------------**
يا شاويشـــــــنا يا داوشـــــــنا	**يا علامـــــــــة ذل جيشنـــــــــــا**

واشتهر محمود يوسف بنشيد مطلعه:

أنا شعب دماء الثأر تجري في شراييني وعنت الخوف والمخبأ	**مللت جمود أيامي مللت جهود حكامي أنا شعب دماء الثأر تجري في شراييني**

وكان هناك عشرات الأناشيد تحكي عن الصمود والشهداء والسجون وفاعلية الدعوة وأمهات الشهداء وقد نجح بعض الاخوة في تهريب سخانات عن طريق الزيارات وقد قاموا بتركيبها وتوصيلها على الكهرباء وتولوا عمل الشاي وتوزيعه على الاخوة عن طريق الشبابيك والفتحات في الحوائط بواسطة خرطوم أو عن طريق العلاقات الإنسانية مع بعض جنود الحراسة كان هناك تواصلاً وتلاحمًا وكانت الأناشيد والهتافات ترفع الروح المعنوية للاخوة بصورة ملحوظة. ولعل أهم ما في الحبس الانفرادي هو فترات العبادة الطويلة وتلاوة القرآن وقيام ومطالعة ذكريات أخوة سابقين سجلوها على حوائط الزنازين.

كانت هناك عشرات القصص تحكي الظلم والافتراء أسرة عم إسماعيل المصيلحي الذي يبلغ من العمر ٦٥ عامًا ولم يشفع له سنه ولا خدمته الطويلة في الجيش المصري في أن يعتقل مع ولديه مصطفى وأمين وصديق ابنه محمد عزبية لمجرد خلاف مع أحد ضباط أمن الدولة.

كان هناك العسكريون – العقيد سيد هيبة والمقدم مكـــاوي الذي يسكن في الشقة التي تعلو شقة زكي بـــدر فـــي نفـــس العمارة – الرائد محمد البرم – النقيب عفيفـــي – المـــلازم مجدي لاشين – لكل إنسان قصة ولكل امرؤ حكاية.

مفاجأة

في يوم من أيام الصيف الحارة في أغسطس – نشرت الصحف أن أجهزة الأمن استطاعت أن تصل إلى مرتكبي حادث أبو باشا – مكرم محمد أحمد – النبوي إسماعيل وقد نشرت كثيرًا من التفاصيل عن هذه المجموعة واشتباكاتها مع الشرطة في قرى محافظة القليوبية وبدأت علامات الاستفهام الضخمة تظهر – إذا كانت هذه المجموعة هي التي أطلقت الرصاص على أبو باشا – فما هو موقف المباحث الآن. وكيف سيتم التصرف في قضية مجدي غريب – محمد البحيري – فاروق عاشور – وماذا سيكون موقف الضباط الذين وقعوا على مذكرة معلومات أمن الدولة التي تم بموجبها توجيه الاتهام إلى مجدي غريب – محمد البحيري – فاروق عاشور – وكذلك كل الذين حققت معهم نيابة أمن الدولة العليا في القضية المسماة ٤٠١ حصر أمن دولة عليا لسنة ١٩٨٧وهي القضية المترتبة على حادث اغتيال أبو باشا وإعادة تشكيل تنظيم الجهاد.

كانت التحقيقات مع ما يسمى بتنظيم «الناجون من النار» قد بدأت وبدأت كثير من الأخبار تنشر في الصحف – وتم تخصيص عنبر «أ» للذين ارتبطوا بتحقيقات القضية ٤٠١ – وعنبر «ب» للمعتقلين على ذمة تنظيم «الناجون من النار».

واستطاع المقيمون بعنبر «أ» أن يوفروا للموجودين في عنبر «ب» بسجن استقبال طره – الكثير من الغذاء والملابس والأخبار اليومية وعلى اعتبار أن الموجودين بعنبر «أ» كانوا قد قضوا فترة أطول واستطاعوا أن ينظموا شئونهم بوسيلة أو أخرى.

الترحيل إلى سجن أبى زعبل

وفي يوم ١٩٨٧/٩/٨ تم ترحيل المعتقلين «جميع الموجودين» بعنبر «أ» إلى سجن أبى زعبل فيما عدا الأخ عصام عبد اللطيف الذي ظل وحدة مقيمًا بعنبر «أ» في سجن استقبال طره – وذلك في محاولة من المباحث للانفراد به والضغط عليه ليتنازل عن قضية التعذيب المنظورة أمام القضاء – من المعروف أن عصام عبد اللطيف كان قد طلب عن طريق المحامي الموكل عنه برد هيئة المحكمة المخولة بالنظر في قضية التعذيب – سارت الحياة في سجن أبي زعبل أكثر انفراجًا وكان عدد المفرج عنهم يتزايد يومًا بعد يوم مع ورود أعداد أخرى من المعتقلين إلى السجن يوميًا وخاصة من المنيا ومدن الصعيد.

صدور قرار الاتهام
في قضية الناجون من النار

في شهر ١٩٨٧/١١ صدر قرار باتهام عدد من المتهمين من المنتمين إلى تنظيم الناجون من النار وقد شمل القرار اتهامًا لعدد منهم بمحاولة اغتيال أبو باشا – وكان معنى هذا أن يصدر قرار بإخلاء سبيل كل من مجدي غريب – محمد طه البحيري – فاروق عاشور – وقد أصدر النائب العام قرارًا بالإفراج عنهم – إلا إنهم حولوا إلى نيابة أمن الدولة العليا للتحقيق معهم في القضية ٤٠١ حصر أمن دولة عليا لسنة ١٩٨٧ وقد أخلت نيابة أمن الدولة سبيلهم جميعًا بدون ضمان إلا أن المباحث تركتهم داخل السجن كشاهد جديد على التعسف والظلم.

الأمهات
ينتظرن في الشرفات

أم محمد طه البحيري – سيدة بسيطة لا تعرف من دنياها إلا منزلها وأولادها. عرفت من تهنئة الجيران خبر ظهور براءة ابنها فانتظرته في الشرفة – وببساطة وحنين الأمهات – ظنت أن قرار الإفراج المنشور في الصحف سوف ينفذ فور صدوره وظلت الأم تنتظر في الشرفة حتى طلع عليها الفجر – ولم يعد محمد ابنها وفهمت فيما بعد أن زكي بدر لا يريد أن يبت في الإفراج عن ابنها البريء المظلوم – وقررت الأم أن تسأل عن المسجد الذي يصلي فيه زكي بدر صلاة الجمعة حتى تذهب إليه وتتوسل إليه أن يفرج عن ابنها المظلوم وبعد فترة من الانتظار لم تصل الأم إلى معرفة هذا المسجد!!

فايد غريب في الحجز

فايد غريب محمد أحمد فايد – العمر ١٣ سنة شقيق مجدي الأصغر – يحمل في وجهه علامات الإصرار والرجولة – كان عليه أن يدفع ثمن الرجولة – اعتقله الظالمون حققوا معه واستجوبوه – ولما اكتشفوا أنه يصلي – حبسوه أربعة أيام في قسم الدقي.

فاروق عاشور
عندما يصل الظلم إلى الذروة

فاروق السيد علي عاشور – مواليــد ١٩٦٢ مــن كفــر بدواي – مركز المنصورة – محافظة الدقهلية. عرف فاروق طريق الرجولة والمسئولية مبكرًا عرفته للوهلة الأولى فــي سجن استقبال طره – كان يبدو مرحًا متفائلاً – معتزاً بنفسه في رجولة يحرص على السؤال عن أحوال الاخوة – يمد من يحتاج بالملابس والغذاء يؤدي دوره في لحظات الشدة فإذا ما ارتفعت الشدة – وانفرجت الأحوال بدأ بالدخول في مشادات كلامية مع الاخوة فاروق عاشور آخر مــن يــدخل ســاعة التمام. وإذا نزل ملعب الكرة – يلعــب بعصــبية – ويشــتد غيظه إذا ما خرج منهزمًا.

اختار فاروق عاشور طريق الإسلام والتقوى والاســتقامة مبكرًا. أطلق لحيته – حرص على أداء صلواته في المســجد – شارك مع الاخوة في كفر بدواي في تنظيم دروس علميــة إسلامية في المسجد – وفي عمل مجموعة تحفــيظ القــرآن الكريم للأطفال.

اعتمد فاروق على نفسه مبكرًا – كان يـــدرس بالثانويـــة التجارية وفي نفس الوقت يعمل بأحد المطاعم – كان يحلـــم مبكرًا بالزواج ليعصم نفسه – يحلم بإقامة أسرة إســـلامية – يحلم بأن يحيا في حلال – حصل فاروق على دبلوم التجارة والتحق بالعمل كإداري في التربية والتعلـــيم فـــي ١٩٨١ – رحل فاروق مع كل الذين رحلوا خلف القضـــبان – عامـــان كاملان قضاهما فاروق مرتحلاً وراء الشمس من سجن إلـــى سجن ومن سجان إلى سجان – إلى أن كتب لـــه الله النجـــاة فعاد إلى كفر بدواي – ليكمل رحلة التعليم والعمل والـــدعوة إلى الله – حصل فاروق على دبلوم المعلمين وتحـــول إلـــى العمل كمدرس بالمدارس الابتدائية – واستمر يعمل كالعـــادة بالمطاعم – وينشط مع أخواته في كفر بدواي مـــن خـــلال المسجد.. وما زال فاروق يحلم بالزواج والحياة الحـــلال – قرر فاروق أن يسافر إلى الغربة إلى البلاد العربية ليجمـــع من كد جبينه تكاليف الزواج – عامان في الغربة – يعـــيش فاروق على الكفاف – ويضع القرش فوق القرش – ويعمـــل ليل نهار ليعود على مصر ليكمل نصف دينـــه – لـــم يكـــن فاروق يعلم أن بمصر ذئاب.

عاد فاروق إلى الوطن – بحث عن بنت الحلال – شارك في أحد المطاعم – عمل بالتدريس – استمر في نشاطه الإسلامي – في المسجد – تحفيظ قرآن للأطفال – إلقاء دروس في المساجد – امتد نشاط فاروق إلى قرية الخيارية المجاورة لقريته وهي مسقط رأس خطيبته.

كان نشاط الاخوة في مسجد الخيارية يقلق بال مباحث المنصورة – وقررت أن تغلق المسجد وأن تصادره وتضمه إلى الأوقاف كان ذلك في بداية عام ١٩٨٧ – جاءت المباحث مباحث أمن الدولة – المباحث الجنائية – قوات الأمن المركزي لتنتزع المسجد من عيون الرجال – ولكن هيهات – وقفت قرية الخيارية بأكملها تدافع عن مسجدها – ذلك المسجد الذي تقام فيه الصلاة لله تعالى – ويتعلم الناس فيه دروس دينهم وأحكام شريعة الله – ويحفظ الأطفال من خلاله آيات القرآن الكريم – فماذا تريد الحكومة من المسجد؟! وقف فاروق وإخوانه مع الأهالي يدافعون عن المسجد وانتصرت إرادة الخيارية على إرادة الحكومة بفضل الله تعالى ولكن كان على الخيارية أن تدفع الثمن.

أخيرًا – حقق فاروق حلمه في الزواج والحياة الحلال – واستقر فاروق في شقته مع عروسه في مدينة شربين بمحافظة الدقهلية.

في يوم إطلاق الرصاص على اللواء أبو باشا كان فاروق خالي الذهن – ذهب إلى مدرسته – ألقى الدروس على التلاميذ – عاد إلى المطعم – اجتهد في عمله – حمل رزقه الحلال – عاد إلى شقته – كرر فاروق روتينه اليومي في اليوم التالي – أثناء عمله بالمطعم – قرأ الصحف اليومية – علم بنبأ إطلاق الرصاص على أبو باشا – استمر في عمله – عاد إلى زوجته!

فلترتشف يا فاروق من السعادة أكبر قدر ممكن – فلديك أيام أخرى – ولا تدري أن بعدها من الأهوال ما تشيب له الرؤوس – ولتمشط لحيتك الطويلة السمراء فإن أياد تتربص بها لتقتلعها شعرة بعد شعرة وخصلة بعد خصلة – ولتناجي زوجتك بما شئت – فإن يد الظلم تتربص بكما – ولتملأ عيناك من عشك الهادئ – فسوف لن ترى عيونك النور أيامًا طويلة سوداء.

الضعفاء يدفعون الثمن

كانت المباحث قد فشلت في العثور على أي خـيط يقـود إلى الذين أطلقوا الرصاص على أبو باشا و اتجهت نيتهم إلى تلفيق القضية لأي مجموعة من الأشخاص حفظًا لماء الوجه كانت المباحث قد فحصت بصمات جميع من سبق اعتقـالهم في قضايا الاتجاه الإسلامي – وقارنتها بالبصمات المرفوعة من زجاجة البيبسي كولا لدى الكشك المواجه لمنزل أبو باشا وتصادف أن وُجد تشابها بسيطًا بين بصمة إحدى أصابع يـد فاروق مع البصمة المرفوعة. وبرغم أن هذا في حد ذاته لا يبرر اتهام فاروق على أساس أن الشهود قـد أنكـروا فـي المباحث أن يكون هناك أي تشابه بين صورة وشكل الـذين أطلقوا الرصاص وبين فاروق عاشـور – إلا أن المباحـث قررت أن تحمل فاروق التهمة – ومن يحمل فشل الأقويـاء إلا الضعفاء!!

في يوم ١٩٨٧/٥/١٩- كانت جحافل الظلام تهبط على قريتي الخيارية – وكفر بدواي – وحمل الظالمون فوق كواهلهم أبناء القريتين وآلام القريتين – اعتقلوا كل شباب الخيارية – وكفر بدواي واعتقلوا كل من يمت بصلة إلى فاروق عاشور الأب – الأخ – الصهر – والد الزوجة..

ولم يجد الظالمون مانعًا من اعتقال الأم وأم الزوجة – حيث تم استجوابهما عدة مرات في مقر مباحث أمن الدولة بالمنصورة.

اختطفوا فاروق عاشور من أحضان عروسه كان لم يمر على زفافه إلا ستين يومًا. حملوه وراحوا يضربون الأرض بأحذيتهم الثقيلة كأنها مطرقة سوداء فوق رؤوس الضعفاء.

التقى فاروق بالاخوة في زنازين المنصورة وتم ترحيله إلى سجن استقبال طره – حيث تتربص الأفاعي والعقارب.

كان سجن الاستقبال مكتظًا بالمعتقلين – وكان هناك في كل زنزانة أكثر من ٢٥ معتقلاً برغم أن مساحتها لا تزيد عن ١٦ مترًا مربعًا – لم يكن هناك وسائد أو بطاطين أو طعام أو ماء.

في قبضة الظالمين

استقر فاروق في إحدى تلك الزنازين – بات ليلتين مع إخوان له في الله – جمع بينهم القرآن والطهارة وحب الآخرة وكراهية النفاق والظلم.

في اليوم التالي استدعي فاروق إلى غرف الإدارة وعملوا له عدة مرات فيشًا لأصابع اليدين أكثر من عشرة مرات في يومين.

في يوم ١٩٨٧/٥/٢٢ تم نقل فاروق إلى الحبس الانفرادي في زنزانة ١/٦ في عنبر ب كان المغرب يقترب – ولم يجد فاروق ما يفطر عليه – كانت الزنزانة خالية من كل شيء إلا الذباب – والقاذورات – والمياه المتسخة نظر فاروق إلى سقف الزنزانة وانخرط في الدعاء قبيل المغرب بدقائق – تقدم ضباط وجنود بأحذية ثقيلة – مفتاح يفتح الباب سيل من الركلات والشتائم – عصابة قذرة على عينيه – قيد في يديه إلى خلف الظهر – سيارة تتحرك تقف بعد دقائق – ينزل فاروق – آذان المغرب – لا طعام ولا شراب – تجريد من الثياب – الكلاب تنبح فاروق عاشور عاريًا كما ولدته أمه – جائعًا عطشانًا أمام ذئاب بشرية لا تعرف عهدًا ولا ذمة ولا ترعى كرامة إنسان.

- أنت الذي أطلقت الرصاص على أبو باشا؟.
- هل تمزحون معي؟.
- وهل هذا بمكان المزاح يا ابن.....

الكرابيج تنهال على الجسد العاري – العصـــي الغليظـــة الركلات.

- سوف تحكي لنا كيف أطلقت الرصاص – من كان معك – من أين حصلت على السلاح.
- هذا لم يحدث أصلاً مني.
- نحن الذين نقرر – وقد قررنا أنه حدث منك.
- ولكن من أين لي أن أعلم؟.
- إنك تعلم – هل أنت عطشان؟.
- نعم.
- إذن اخرج لسانك لتشرب.

أخرج فاروق لسانه – فصعقة المحقق بالكهرباء.

فاروق يصرخ.

- أصرخ كما تشاء – أنت في جبل.
- يا رب.

- يا فاروق نحن متأكدون مما نقول – إن بصـــماتك على زجاجة البيبسي كولا تؤكد ذلك.
- اقسم بالله لا أعرف شيئًا عن هذا الموضوع.
- لا فائدة لا تراوغ – استمع لي جيدًا هناك بصماتك – وهذا يكفي أمام القضاء.. سواء اعترفت أم لـــم تعترف – فلا جدوى – ولكن إذا اعترفت أنقـــذت نفسك – وأنقذت أهلك من عذاب أليم.
- والله العظيم لا أعرف.
- لا فائدة.

علقوا فاروق من يديه إلى الخلـــف – كالذبيحـــة تمامًـــا. العشرات يضربونه – العشرات يكهربونه – يرتفع الفولت – تزداد الصرخات تزداد لسعات الكرابيج.

- لا أعرف.
- دهنوا جسمه العاري بالدماء – أطلقوا عليه الكلاب.
- أقسم بالله لا أعلم.
- وضعوا رأسه في مشنقة – أوقفوه علـــى كرســـي بضربة واحده ستشنق.
- أقسم بالله لا أعرف.

- عشر ساعات متواصلة من العذاب.
- يستريح الجلادون – أريد طعام – أريد ماء.
- لا فائدة.

استمر التعذيب على هذه الصورة ثمانية أيام متواصلة – لم يعد فاروق يكترث بالتعذيب وأصبح فاروق مشغولاً بقراءة القرآن في مواجهتهم.

- لا فائدة.

التهديد بهتك عرض الزوجة
رحمة الله في اللحظات القاسية

- يبدو أنك مجرم محترف.
- لا أعرف.
- سوف نحضر الآن زوجتك.
- وما ذنب زوجتي.
- يجب أن تتكلم وإلا فعلنا بها كذا – وكذا أمامك.
- حسبي الله ونعم الوكيل.
- وضعوا قطناً في فم فاروق – لصقوه بالبلاستر.
- ما اسمك يا أخت؟.
- اسمي...
- ما اسم زوجك؟.
- فاروق السيد علي عاشور.
- متى تزوجتما؟.
- منذ حوالي شهرين.
- يا أمن أخرجها من هنا.

- أخرجها الحراس – أوقفوها أمام الغرفة رفعوا البلاستر والقطن من فم فاروق.
- هل سمعت صوت زوجتك.
- يا كفار – يا مجرمين – يا ظالمين – سوف أنتقم منكم.. لن أترككم حتى آخر يوم في حياتي – لعنة الله على الظالمين – لعنة الله على الكافرين – حسبي الله ونعم الوكيل.

***

ركلات وضربات – عصي – كرابيج – كهرباء – كلاب بوليسية – صراخ – لا إله إلا الله محمد رسول الله.

أحد الحراس يقول – كفى إنه يموت

الموت يعود مع الزوجة

عادت الزوجة إلى الخيارية – سمعت كل شيء – الركلات – الصفعات – الصرخات – كلمات الحارس – وهل يتحمل فاروق كل هذا – هل يتحمل جسم فاروق القصير الضعيف كل هذا – لم تحتمل الزوجة آلامها فباحت لأمها بكلمات – انتشرت الكلمات كالبرق في أرجاء القرية مات فاروق من التعذيب – تحولت القرية إلى مأتم كبير – الأهالي يعزون بعضهم بعضًا ولكن في الخفاء – فقد خافت قلوبهم أن تطاردهم يد البطش وتحرم عليهم البقاء – بعد أن نزلت تلك اليد الباطشة على جسد فاروق بالكرباج.

محاولة الهرب

وقف فاروق عاريًا. وفوق جسده جيش من الذباب.

- أيها الحارس – أرجوك أبعد الذباب عني.
- قف ولا تتحرك – ولا تخرج لسانك من فمك.
- ألست إنسان – أليس لك أولاد؟.
- أخرس قلت لك.
- الله ينتقم منك.
- يا شيخ فاروق لا تدعو علي ما ذنبي أنا.
- حسبي الله ونعم الوكيل.
- الحارس – يستخدم فوطه في إبعاد الذباب عن جسد فاروق – بعد أن نظر حوله واطمئن على عدم وجود أحد.
- جزاك الله خيرًا – من أي بلد أنت.
- لا داعي لأن تعرف.
- ماذا فعلوا بزوجتي – هل رأيتها.
- نعم – ولم يفعلوا بها شيئًا.
- هل تقسم على ذلك.

- أقسم.
- حسنا ماذا كانت تلبس – ما لون ملابسها.
- لونها كذا.
- بالضبط – الآن استرحت.
- لدي لك خبر سعيد – زوجتك حامل.
- الحمد لله.
- ماذا سوف تسميه إن شاء الله.
- خالد.

تحول جسد فاروق إلى كتلة من الدم والصديد والقيح وجبات التعذيب على أيدي المحققين – ووجبات التعذيب بعد رحيل المحققين على أيدي الذباب نهارًا والناموس ليلاً. لم يعد فاروق يحتمل قرر فاروق أن يحاول الهرب – في أثناء عودته من إحدى وجبات التعذيب – نادى المحقق على الحارس – ترك الحارس فاروق على السلم وذهب إلى المحقق – فاروق يتحسس المكان – لا أحد – يحك رأسه في الحائط – يرفع العصابة عن عينيه – يجري بسرعة مجنونة يقفز من فوق السور عن طريق إحدى غرف التفتيش – يجد نفسه في مواجهة سور آخر – يجري بسرعة – حديقة

موحلة – يرى الباب المغلق – يرتطم بأحد الحراس النائمين يحاول الخروج من الباب المغلق – ينحشر في الباب يضعون فوق رأسه البندقية – يعيدون تكتيفه وتعصيب عينيه وينـــال وجبة ساخنة من التعذيب.

يستمر التعذيب – يستمر فاروق في تلاوة القرآن الكريم.

***

أغلى كوب شاي في التاريخ

لم تكن قصة محمد طه البحيري ومجدي غريب وفاروق عاشور هي القصة المثيرة الوحيدة، بل كان هناك وراء كل باب حكاية.

فهذا هو شعبان حسين الذي جمعتني به زنزانة المدخنين، وهو رجل أسمر أصلع ذو لحية كثيفة يبلغ من العمر ٣٢ عامًا في ذلك الوقت، ولكن بسبب منظره يمكن أن نعطيه من العمر ٦٠ عامًا فاللحية الكثيفة مع الصلع مع السمرة أعطته أكثر من سنه كثيرًا، لدرجة أن البعض أطلق عليه اسم السجين "هيس" وهو السجين الألماني المعروف والذي كان قريب الشبه في الشكل من شعبان حسين.

شعبان حسين، خريج كلية الآداب قسم جغرافيا، يعمل بالمقاولات من أسرة ميسورة، مرح جدًا، لا يكاد يكف عن إطلاق النكات داخل السجن ويثير جوًا من المرح أينما حل، كان كلما رأى أحدًا من الناس يأكل مثلاً يقول له بدلاً من الانشغال بالطعام ادعو لي بالإفراج، وكذلك إذا وجد من يشرب الشاي يقول له بدلاً من شرب الشاي ادعو لأخيك

شعبان بالإفراج، وكذلك إذا وجد أحدًا يطالع كتاب أو يتحدث مع آخر يقول نفس الشيء حتى صارت هذه الجملة لازمة من لوازم شعبان حسين، حتى أن البعض كان بمجرد أن يرى شعبان حسين يسرع بالقول له بدلاً من الانشغال بكذا لماذا لا تدعو لي بالإفراج وذلك كي يقطع عليه هذا القول ويسبقه إليه.

شعبان حسين له شقيق كان قد اُعتقل على ذمة تنظيم الجهاد عام ١٩٨١ وخرج من السجن بعد انتهاء التحقيقات وعمل مرشدا سياحيًا وانقطعت صلته بالموضوع نهائيًا، ولكن في عام ١٩٨٧ تذكر أحمد راشد أن هناك شخصًا يعرفه ومن المفروض أن يضمه إلى تشكيل جديد للجهاد كان يحاول أحمد راشد عمله في ذلك الوقت، وذهب للسؤال عن شقيق شعبان حسين في منزل الأسرة، ولم يجده موجودًا بالمنزل وبالطبع استقبله شعبان حسين كعادة أي إنسان ريفي كريم وقدم له كوبا من الشاي، فشرب أحمد راشد الشاي وانصرف ونسي شعبان حسين الحكاية برمتها.

ولما وقع أحمد راشد في قبضة المباحث حكى كـل شـئ مهم وغير مهم في الموضوع بكل التفصـيلات الصـغيرة، وهذه عادة أحمد راشد الذي يعترف فورًا وبمجـرد اعتقالـه بكل شيء حتى ولو لم يكن شيئًا ذا أهمية.

وكان من نصيب شعبان أن يصدر قرار باعتقاله، ويـتم توجيه تهمة الانتماء إلى تنظيم الجهاد له، ثم تصدر النيابـة قرارا بالإفراج عنه بكفالة ٥٠٠ جنيه ويعلق شعبان على ذلك قائلاً هذا أغلى كوب شاي في التاريخ!

ولم يكن شعبان وحده، بل كان هناك آخـرون وضـعهم سوء حظهم في طريق أحمد راشد لسبب أو لآخر، فأحـدهم وهو محمد سيد أحمد كان يعمل سائقًا بالسكة الحديد، وكـان جارًا بالمنزل لأحمد راشد الذي طلب منه حجز تذكرة سـفر له على أحد قطارات الصعيد ففعل الرجل، ولما كان أحمـد راشد سيذهب إلى الصعيد لأسباب تنظيمية كان من نصـيب هذا السائق الذي حجز له تـذكرة السـفر أن يـتم اعتقالـه وتعذيبه، ومن الغريب أنه اضطر لتلفيق تهمة لنفسه للخلاص من التعذيب فادعى أنه هو الذي أطلق النار على مكرم محمد أحمد وحتى أنه سرق سيارة ملاكي واستخدمها في الحـادث

ووصف الحادث كما كان قد قرأه في الصحف، وأُخذ الاعتراف محمل الجد وتم استدعاء أحد كبار المسئولين في الوزارة لسماع اعترافات هذا المتهم فطلب منه أن يحكي ما حدث، فحكى الرجل ما حدث كما قرأه في الصحف، ولكن هذا المسئول أحس أن القصة غير متماسكة فسأله وكيف سرقت السيارة، فقال له كسرت الهواية وشددت المسوجر وفتحت الباب، فقال له الهواية اليمين ولا الشمال وهنا أسقط في يده ولم يعرف كيف يجيب فلو قال الشمال فربما كانت اليمين ولو قال اليمين فربما كانت الشمال، فاضطر أن يعود ويعترف بأنه اختلق القصة كلها من أولها إلى أخرها، وكان نصيبه من ذلك علقة ساخنة جزاء كذبه على المباحث.

كان هذا الشاب قد ترك زوجته حاملاً في الشهر السادس وكان كل ما يخشاه أن يسيء والده معاملتها، لأنه يقول أن والده سوف يكرهه ويحقد عليه، لأن هذا الوالد كان يعمل سائقًا برئاسة الوزراء، ومن المتوقع أن يتم فصله من عمله بسبب ابنه، وكان محمد شديد القلق من ذلك.

وما أن علم عندما جاء أهله لزيارته أن والده قد فُصل بالفعل من عمله ازداد حزنًا واكتئابًا، ولم يخرجه من هذا الحزن والاكتئاب إلا حضور والده لزيارته وقوله له إنه تحرر من ذل الوظيفة وإنه قد خرج إلى المعاش ولم يُفصل ولو إنه معاش مبكر، وإنه سيفتتح محلاً تجاريًا صغيرًا في منزلهم وإنه ليس غاضبًا منه.

***

كان هناك الكثيرون الذين حرصت على أن أستمع لحكاياتهم، الحاج سعيد المليجي، وهو صاحب ورشة لصناعة البلاط ومقاول، وكان قد استمع إلى إحدى خطب الدكتور عمر عبد الرحمن في أحد المساجد بمدينة المحلة الكبرى، فأعجبته الخطبة، وتطوع لتوصيل الدكتور عمر عبد الرحمن إلى القاهرة بسيارته الخاصة وبالطبع تم التقاط رقم السيارة ومعرفة صاحبها ونامت المسألة في الأدراج إلى أن حان الوقت وفي إطار حملة الاعتقالات بسبب حادثة أبو باشا تم اعتقال الرجل، ولبث في السجن ما يقرب من العام وانقطعت مصالحه بسبب مجرد توصيلة بالسيارة!

وكان هناك شاب صغير يدعى محمد رياض في العشرين من عمره وهو طالب بجامعة المنصورة، كان قد شارك في أحد معسكرات الصيف بجمصة مع مجموعة من زملائه، وتصادف وجود بعض الطلاب المنتمين للجماعة الإسلامية في هذا المصيف، ومع حملة الاعتقالات والاعترافات تم اعتقال كل من حضر هذا المعسكر، وكان هذا الشاب مولعًا بالتمثيل والمسرح، وقد أمدني بالعديد من المسرحيات والروايات التي أحضرها أهله له لقراءتها في فترة الاعتقال، وبالطبع كان هذا شيئًا مثيرًا بالنسبة لي حيث أن الكتب المتداولة في السجن بين الاخوة معظمها كتب دينية ويندر وجود أمثال هذه الروايات والمسرحيات داخل هذا السجن.

أما أكثر القصص إثـــارة فهـــي قصـــة مجموعـــة مـــن العسكريين من مختلف الرتب بين ملازم وعقيد، وكان هؤلاء زملاء في العمل لضابط يسمى إبراهيم سلامة، وهو عـــديل عصام القمري وكان قد ذهب لأداء فريضة الحج فقام زملاؤه بزيارته بعد عودته للتهنئة، ولكنه كان مراقبًا وقد فُصل بعـــد ذلك من الخدمة ونسي هؤلاء هذا الشخص ونســـيهم، إلا أن أحداث أبو باشا فتحت الأدراج وتم اعتقال كل هؤلاء الـــذين زاروا زميلهم بعد أداء فريضة الحج ومنهم النقيـــب عفيفـــي الذي يعمل حاليًا صحفيًا بجريدة الحقيقة، والمـــلازم محمـــد لاشين الذي كان يقول عن نفسه أنه أصغر شـــخص علـــى المعاش في مصر، حيث أنه تم إحالته على المعاش مثل باقي هؤلاء الضباط ورغم أن سنه لم يكن يتجاوز في ذلك الوقت الخمسة وعشرين عامًا. وكذلك الرائد محمد والمقدم محمـــد مكاوي الذي انفرد بأنه كان حكاية وحده وهو أحـــد رجـــال الصاعقة وقام بالعديد من العمليات خلف خطوط العدو، وشاء حظه أن يسكن في شقة تقع فوق شقة اللواء زكي بدر قبل أن يصبح وزيرًا للداخلية وحدث أن تشاجر مع الوزير بســـبب الزبالة وكتمها الوزير السابق في نفسه إلى أن جاءت اللحظة المناسبة فاعتقله بتهمة الانتماء إلى تنظيم الجهاد.

هؤلاء جميعا بانت بـراءتهم وخرجـوا مـن السـجون، ولكنهم، كانوا قد فقدوا وظائفهم وأصبحوا على المعاش!

ومن غرائب التحقيقات أنه تمت توجيه تهمة إحراز ذخيرة للملازم لاشين الذي كان مهندسًا عسكريًا في الـذخيرة مـن خريجي الفنيـة العسـكرية وتمـت مواجهتـه بـالأحراز المضبوطة، ولكنه قال للنيابة أن هذا دلـيلاً علـى براءتـه وتلفيق التهمة، لأن هذه الطريقة في تخزين الـذخيرة كفيلـة بإفسادها وبما أنني متخصص في الذخيرة فليس من المعقول أن أقوم بحفظها بهذه الطريقة التي تفسد مفعولهـا فأفرجـت عنه النيابة.

***

كانت الأمور تسير في اتجاه حفظ القضية، فلم تكن هناك اعترافات ولا مضبوطات ذات قيمـة، ولا وقـائع محـددة، والأمر كله كان مبنيًا على حادثة أبو باشـا التـي انهـارت بدورها بعد اكتشاف أن هناك آخرون نفذوها وهم من تنظيم الناجون من النار، وكان معنى هذا أن القضـية قـد فقـدت عمودها الفقري وأن انهيارها أصبح مسألة وقـت، واسـتعد الجميع للإفراج وكثر الحديث عنه.

وكان الجميع قد أنكر كل شيء في النيابة وكان المحامون يوصون بعدم الكلام الكثير في النيابة لا في الوقائع ولا في الفكر حتى لا تطول التحقيقات بدون داع، إلا أن أسامة جغرافيا كان له رأي آخر، فقد أصر على الحديث في النيابة والإدلاء برأيه في كافة القضايا السياسية المطروحة على الساحة داخلية وخارجية، وعلم الاخوة داخل السجن بنيته فشعروا بالقلق، لأن هذا الكلام الكثير سوف يتسبب في إطالة التحقيقات وربما يؤدي إلى استمرار القضية بدلاً من حفظها وتجمع الاخوة حول أسامة يرجونه ألا يتكلم في النيابة حتى لا يضر الآخرين إن كان مصرًا على الإضرار بنفسه وجاء البعض إلي يرجوني أن أتحدث مع أسامة في هذا الأمر على اعتبار أنه صديقي ويمكن أن أؤثر عليه وكنت أعرف أن أسامة لا يهتم باستمرار حبسه أو الإفراج عنه، فكل شيء بالنسبة له سيان فهو شخص غير عاطفي بالمرة، وليس في حياته سوى الإسلام وتحصيل العلوم، وهو بالمناسبة شخص صغير الجسم حاد الطباع شديد الذكاء، يتمتع بقدرة هائلة على استيعاب المعلومات في كافة العلوم وخاصة الجغرافيا حتى أنه اشتهر باسم أسامة جغرافيا، وهو شديد الإخلاص

لقضيته ولا يرى شيئًا في حياته سواها، وهو يستفيد أيضًا من فترات السجن في الحصول على المزيد من الشهادات، فبعد أن حصل على بكالوريوس العلوم شعبة الجيولوجيا، دخل كلية الاقتصاد والعلوم السياسية وحصل على البكالوريوس في العلوم السياسية ثم التحق بكلية الآداب وحصل على الليسانس في الجغرافيا وهو يعمل الآن معيدًا بقسم الجغرافيا بها، وهو أيضًا بالمناسبة لا يشرب شايًا أو قهوة أو حتى حلبة ويؤكد لي أكثر من مرة أنه لم يصب بالصداع قط في حياته وكان يتعجب كلما أخبرته أنني أشعر بالصداع مثلاً قائلاً إنه لا يعرف معنى الصداع، وهكذا فإن أسامة لا يعنيه الأمر شخصيًا وبالتالي حاولت أن أدخل له من مدخل الحرص على الآخرين وتقدير ضعفهم أو ظروفهم وأن الآخرين ليسوا مثله، وبعد أن استنفذت كل حججي أصر أسامة على رأيه وموقفه وأكد أن ذلك لن يقدم ولن يؤخر في القضية شيئًا، لأنه سواء تكلم أو لم يتكلم فسوف تحفظ القضية، وأنه لن يراعي مشاعر الآخرين النابعة عن سوء تقديرهم للأمور ويفوت هذه الفرصة في تسجيل موقف تاريخي وذلك بتسجيل رأيه السياسي في النيابة خدمة للتاريخ

وحتى يعرف الباحثون والمؤرخون فيما بعد حقيقة الموقف السياسي لتنظيم الجهاد، وقال إن هذا موقف استراتيجي وإنه لن يضيع الاستراتيجي من أجل التكتيكي، وبالفعل ذهب أسامة وقال كل ما أراد في النيابة واستمرت تحقيقات النيابة معه عشرة أيام متواصلة ملأ فيها مئات الصفحات.

أدلة المخبطة
في الرد على المثبطة

بعد اكتشاف ما يسمى بتنظيم "الناجون من النار" واعتراف عناصره بالمسئولية عن حادثة أبو باشا ومكرم محمد أحمد، كان من الطبيعي أن تنهار القضية الأولى بعد سقوط عمودها الفقري، وأحس الجميع أن الإفراج بـات قريبًـا، وكثـرت التهليلات والتفسيرات كالعادة وكذا تحديد مواعيد الإفراج.

ومع تزايد أعداد المقبوض عليهم من تنظيم الناجون مـن النار كان من الطبيعي أن يتم إخلاء سـجن اسـتقبال طـره تمهيدًا لاستقبال هؤلاء، وبالفعل صدر قرارًا بنقلنا جميعًا إلى سجن أبي زعبل واستثني من هذا القرار شخص واحد هـو عصام عبد اللطيف، وقد علمنا أن ذلك بسبب أنه كان أحـد الشهود في قضية التعذيب الكبرى التي كان النائب العام قـد أحال بموجبها عددًا من ضباط المباحث إلى القضاء بتهمـة ارتكاب جريمة التعذيب، وقد تم استبقائه في ذلـك السـجن كنوع من الضغط عليه لتغيير شهادته على أي حال فقد تـم تجهيز سيارات الترحيلات وحزم كل منا أمتعته وانتظرنا في

الردهة الخارجية للسجن، وكان من المفروض طبعًا أن يستلم كل منا الأمانات الخاصة به من نقود وغيرها والموجودة لدى الإدارة، ولكن الموظف المسئول كان قد تغيب في ذلك اليوم، ويبدو أنه لما علم بقرار الترحيل أراد التغيب حتى لا يسلم الأمانات الموجودة لديه ثم يتلاعب فيها ويستولي عليها أو على بعضها ويبدو أن مأمور السجن قد فهم هذا، وكان هذا المأمور هو المقدم سمير الكاشف وأشهد أنه كان رجلاً نزيهًا وشريفًا ويؤدي واجبه دون تطاول أو افتراء، وأصر المأمور على تعطيل سيارات الترحيلات إلى حين استدعاء الموظف المسئول عن الأمانات، ولما لم يستطع العثور عليه في بيته أو في أي مكان قرر المأمور تسليم الأمانات بنفسه على مسئوليته الشخصية وسجل بهذا موقفًا شريفًا يحسب له.

***

انطلقت سيارات الترحيلات مخترقه شوارع القاهرة باتجاه أبو زعبل، وانطلقت بالطبع الهتافات والشعارات في كل مكان يوجد فيه زحام سواء قرية أو مدينة حتى وصلنا إلى سجن أبي زعبل.

قامت الإدارة بعقد اجتماع معنا، وقررت أنــه لا داعــي للاحتكاك بينا لأي سبب، وأن علينا أن ندير أمورنا بأنفســنا ويمكننا أن نفعل أي شيء داخل الأسوار فيما عد الهــروب طبعًا!

وأطلقت الإدارة يدنا في كل شئ وقام الاخوة بتنظيم كافة الأمور فيما بينهم دون تدخل من الإدارة.

وكانت هذه فتره من الرخاء الكامل. فكنا نستقبل الــزوار إلى أي وقت نشاء وبأي عدد وكذلك كنا نرسل الجنود لشراء كل ما نحتاج إليه من خارج السجن، وكانت الأمــور جيــدة للغاية ولكن يبدو أن للراحة سلبياتها أيضًا، ففي وقت الشــدة والصدام مع الإدارات تختفي الاختلافات في الآراء ويصــبح الجميع كتلة واحدة الجهاد والإخوان والجماعــة الإســلامية والسلفيين، ولكن مــع فتــرات الراحــة تظهــر الخلافــات والمنازعات حول الفقه أو الســلوك السياســي أو القضــايا المطروحة، وكان أكثر الناس إثارة للخلاف هــم الســلفيون وكانت لهم الكثير من المواقف العجيبة، ولكن كــان أكثرهــا طرافة هو هذا الموقف.

ذلك أنه في أحد الليالي، أصيب أحد الاخوة بنوبة من الإغماء، وربما يرجع ذلك إلى أنه كان كثير الصيام وكثير قيام الليل للتهجد والعبادة، المهم أن من كانوا معه تصوروا أنه على وشك الموت، وقاموا بالصياح والطرق على باب الزنزانة لاستدعاء أحد الأطباء، ولما كان الوقت ليلاً فإنه كان من الصعب جدًا السماح بفتح الزنزانة وانتقال أحد الأطباء المعتقلين من زنزانة أخرى لإسعاف هذا الأخ المريض إلا أن الاخوة بالزنزانة قالوا أنه من المستحيل ترك الأخ يموت لأي سبب ولا بد من فتح الزنزانة وإسعافه مهما كان الأمر، وتضامنت معهم باقي الزنازين وأخذ الجميع يطرق على الأبواب بالحلل وغيرها لإثارة ضجيج كبير وحاول الضباط الذين جاءوا على عجل لمعرفة ماذا حدث أن يقولوا لنا أن فتح الزنزانة مستحيل لأنه يحتاج إلى محضر فتح في هذه الساعة من الليل، وبالطبع لم نقتنع بمثل هذه اللوائح لأن إنقاذ هذا الأخ أهم لدينا من اللوائح، ومع الإصرار من جانبنا اضطر الضابط المناوب الاتصال بالمأمور واستدعاء طبيب مستشفى السجن وتم عمل محضر فتح للزنزانة ونقل الأخ المغمى عليه إلى المستشفى حيث تم

حجزه بها عدة أيام إلى أن تم شفاؤه إلى هنا والمسألة عادية جدًا، ولكن غير العادي أن بعض السلفيين قالوا أنه ليس هناك دليل على التخبيط ليلاً في الكتاب والسنة، وقال لهم بعض المتفقهين في الدين أن الأصل في الأشياء الإباحة، وليس هناك نص يحرم التخبيط ليلاً وأنه لا داعي لإثارة الخلاف وحتى لو كان هناك شئ في التخبيط ليلاً فإن الضرورات تبيح المحظورات والأخ كان في خطر وبالتالي فلا بد من التصرف بأية طريقة لعلاجه.

واستمر هذا الجدل فتره من الوقت حتى اضطر البعض إلى المزاح وإطلاق شائعة تقول إن بعض الاخوة سوف يقوم بتأليف رسالة لإثبات صحة التخبيط ليلاً تحت عنوان "أدلة المخبطة في الرد على المثبطة".

***

وجدت أن الأمور هادئة وتسمح بمغامرة، كان الهدف منها الذهاب إلى سجن ليمان طره حيث يوجد المسجونون من قيادات تنظيم الجهاد، والذين يعرفون بالطبع كل حقائق التنظيم وأسراره، وكيف نشأ هذا التنظيم ومتى وماذا حدث بالضبط عام ١٩٨١، وتظاهرت بأنني مصاب بوجع في أحد ضروسي، وتحولت إلى طبيب المستشفى الخاص بالأسنان، واستخدمت معلوماتي الطبية في الادعاء أن هناك احتمال لوجود ورم تحت هذا الضرس لأن مظهره لا يوحي بالوجع وطلبت تحويلي لعمل أشعة على الأسنان وبالطبع هذه تحتاج للذهاب إلى مستشفى السجن الرئيسي بليمان طره، وكتب طبيب الأسنان توصية بذلك، وبعد أسبوع بالفعل تم تنفيذ التوصية، وذهبت إلى مستشفى سجن ليمان طره، حيث استطعت بالفعل أن ألتقي بعدد كبير من قيادات تنظيم الجهاد المحبوسين سواء من كان منهم بالمستشفى أو من كان منهم بالسجن حيث أن من السهل الخروج من المستشفى والتجول في السجن عن طريق علاقات بعض الاخوة بالجنود.

وقمت بالتحدث مع هؤلاء القيادات وحصلت بالفعل على معلومات وحقائق حول نشأة التنظيم وأسراره وحقائقه، وكانت معلومات جديرة لم يعرفها من قبل أحد ولم تنشر من قبل، وقد كانت نتيجة هذه المغامرة أنني أصدرت بعد خروجي من السجن كتابًا هامًا تحت عنوان تنظيم الجهاد جذوره وأسراره وقد نشرته، الشركة العربية الدولية للنشر والتوزيع عام ١٩٩٠.

الإفـــــراج

بدأت قوائم الإفراجات تأتي في كل يوم، ويتم النداء على المفرج عنهم، وكان الاخوة يقومون في كل مرة بعمل حفلـة للمفرج عنهم يقومون فيها بترديد الأناشيد أو إلقاء الخطـب الحماسية وكان في نفس الوقت يأتي إلى السجن معتقلين جدد وخاصة من طلاب الجامعات أو من عناصر الصعيد المنتمية إلى الجماعة الإسلامية، وهؤلاء لا تنقطع اعتقـالاتهم علـى مدار العام وكنت أنتظر دوري في الإفراج إلى أن جاء هـذا الدور، وتم النداء على اسمي ضمن المفرج عنهم، وحزمـت أمتعتي وشاركت في الحفلة المقامة على شرف المفرج عنهم وذهبت إلى سيارة الترحيلات، ولكن كانت هنـاك مفاجـأة، حيث أن كاتب السجن قال إنني ما زلت على ذمـة النيابـة وبالتالي فقرار الإفراج عني من الاعتقال لا يتيح لي الخروج إلا بعد العرض على النيابة وهكذا كان قرار النيابة العجيـب في العرض عليها بعد انتهاء فترة الاعتقال سببًا في تـأخير الإفراج عني وبالفعل عدت إلى زنزانتـي حزينًـا وسـلمت أمري إلى الله.

وفي اليوم الثالث ذهبت إلى النيابة بالفعل وأفرجت عني وعدت إلى السجن بانتظار تنفيذ القرار، وكان علي أن أقضي ثلاثة أيام أخرى في السجن حتى جاء اسمي مرة أخرى في كشوف المفرج عنهم ودعوت الله ألا يحدث شيء آخر يعطل الإفراج عني، ولكن الإفراج نفسه كان من خلال رحلة قاسية أخرى، فقد كان علي أن أذهب إلى سجن الترحيلات بالخليفة، وهو سجن قذر لا يبق بمصر ولا أعرف هل ما زال قذرًا حتى الآن أم تغيرت الأحوال وكان علي أن أنتظر عدة أيام أخرى داخل حجز الخليفة حتى يأتي اليوم المحدد لترحيلات المنصورة حيث أن كل محافظة لها يوم محدد في الترحيل.

وفي هذه الفترة شاهدت أشكالاً وألوانًا من البشر من كل الجنسيات يمرون على هذا الحجز في طريقهم إلى السجن أو في طريقهم إلى الخارج، خارج السجن أو حتى خارج البلاد.

وبالطبع كان علينا أن ندير أمورنا، وأن نشتري الطعام من خارج الحجز عن طريق بعض الجنود أو عمال البوفيه وطبعًا بأسعار باهظة ولكن الأكثر إثارة أنه كان علينا أن ندفع يوميًا إتاوة لأمين الشرطة النوبتجي حتى يسمح لنا بالمبيت في غرفة غير مكتظة بالمحتجزين، ويبدو أنه كان علينا أن ندفع فاتورة المبيت والطعام في مكان لا نرغب في التواجد فيه!

في اليوم الأول رفض عدد منا - وكنا مجموعة من السياسيين المفرج عنهم من مختلف السجون المصرية قد تجمعوا في هذا المكان - أن يدفع تلك الإتاوة، فما كان من أمين الشرطة النوبتجي إلا أن نقلنا إلى غرفة أخرى مكتظة بالمحتجزين من لصوص ومتسولين، وكان علينا أن نبيت ليلة سوداء وسط تلال من البق والصراصير وخناقات مستمرة بين المحتجزين وسباب من مختلف الألوان يتبادلونه فيما بينهم، وبالطبع كانت الغرفة مزدحمة إلى درجة لا يمكن فيها لأحد إلا أن يقف ربما على قدم واحدة، وكان هذا بالطبع سبب الشجار المستمر بين هؤلاء الناس الذين قادتهم ظروفهم إلى هذا المكان البشع.

اضطررنا إلى الانزواء في أحد الأركان وظللنا واقفين طوال الليل دون نوم، وفي الصباح أخبرنا أمين الشرطة الجديد أننا سندفع الفاتورة، فأمر بنقلنا إلى غرفة أخرى.

ويبدو أن الزحام كان مفتعلاً للحصول على إتاوة ممن يستطيع إنقاذ نفسه من هذا الزحام بدفع شيء من المال، فلا يبقى في هذا الغرفة الضيقة إلا من لا يجد شيئًا يدفعه، وفي الحقيقة فإن حجز الخليفة بهذه الطريقة وهذا الأسلوب سبة عار في جبين وزارة الداخلية بصرف النظر عن موقفنا السياسي وبصرف النظر عن كل شيء، وإصلاح أحوال هذا الحجز ضرورة ليس للسياسيين وحدهم بل لكل الناس حتى لو كانوا لصوصًا أو متسولين، لأن العقوبة لا تعني إهدار آدمية الإنسان.

انتقلنا أو قل عدنا إلى غرفة غير مزدحمة، وبرغم وجود البعوض والصراصير إلا أن ذلك كان جنه بالمقارنة بالغرفة الأخرى.

وبعد خمسة أيام في حجز الخليفة تم ترحيلنا إلى محطة مصر حيث ركبنا القطار تحت الحراسة إلى الزقازيق، وفي محطة الزقازيق تم نزولنا ثم أخذونا إلى سيارة ترحيلات أخرى إلى المنصورة وكنا خليطًا من السياسيين والجنائيين وبعد أن خرجت السيارة من مدينة الزقازيق وبعد أن قطعت عدة كيلو مترات توقفت مرة أخرى وطلب منا الحراس والسائق أن يدفع كل منا جنيهًا واحدًا، فلما رفض البعض قال لنا أكبرهم سنًا برتبة مساعد "صول" إنه سيتعمد تأخيرنا في الطريق حتى نصل إلى المنصورة مساءًا وبالتالي يضطرون هناك إلى حجزنا حتى الصباح التالي، وبالفعل حدث هذا، ووصلنا إلى المنصورة متأخرين نظرًا لتعمد الحراسة والسائق هذا الأمر، وتم تحويلنا إلى الحجز في أحد الأقسام إلى الصباح التالي، ثم ترحيلنا كل إلى بلده، فذهبت أنا تحت الحراسة أيضًا إلى مركز ميت غمر، وكان على أن أدفع أجرتي وأجرة الحارس في الطريق من المنصورة إلى القاهرة حيث سلمني هذا الحارس إلى قسم الشرطة مركز ميت غمر وتم احتجازي في حجز قسم شرطة ميت غمر حتى اليوم التالي، إلى أن أفرجوا عني أخيرًا بعد رحلة عذاب في الإفراج لا تقل عن رحلة العذاب في السجون ويبدو أن الإنسان المصري عليه أن يتعذب دائمًا متهمًا وبريئًا مسجونًا ومفرجًا عنه!